توفه يانسون

وادِي المومين في شهرِ تشرين الثَّاني

مكتبة
Telegram Network

Table of Contents

وادِي المومين في شهرِ تشرين الثَّاني

إلى أخي لاسّه

I

2

3

4

5

6

7

8

9

10

11

12

13

14

15

16

17

18

19

20

21

وادِي المومين في شهرِ تشرين الثَّاني

توفه يانسون

«مكتبة ♔ النخبة»

Translation is supported by FILI

FILI FINNISH LITERATURE EXCHANGE

ISBN: 978 91 88863 74 4
Arabic edition © Bokförlaget Dar Al Muna AB, 2019
© Tove Jansson, (1970), Moomin Characters™
Arabic text © Bokförlaget Dar Al Muna
First published in Swedish under the title:
Sent i november
All rights for Arabic language are reserved
Typesetting: Joachim Trapp

Bokförlaget Dar Al-Muna AB
Box 127, 18205 Djursholm, Sweden
www.daralmuna.com

إلى أخي لانسّه

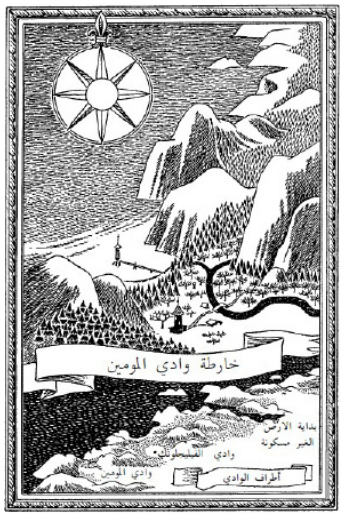

I

سنفكين

باكرًا صباحَ أحدِ الأيَّامِ في وادي المومين، استيقظَ سنفكين في خيمَتِه والشُّعورُ يراودُه بأنَّ الخريفَ قدْ جاءَ، وأنَّ الوقتَ قدْ حانَ لتفكيكِ مخيَّمِهِ.

تفكيكُ المخيَّمِ علَى هذَا النَّحوِ يأتِي بالقفزِ والوثبِ والنَّطِّ! إذْ علَى حينِ غرَّةٍ يغدُو كلُّ شيءٍ مختلفًا، وفي حالِ أرادَ المرءُ الانتقالَ، عليهِ مراعاةُ الاستفادةِ منْ كلِّ دقيقةٍ، بسحبِ أوتادِ الخيمةِ، ويخمدُ النَّارَ بسرعةٍ قبلَ أنْ يمنعَه أحدٌ، ويبدأُ في طرحِ الأسئلةِ، ثمَّ يباشرُ الجريَ وهوَ يجرُّ حقيبةَ الظَّهرِ، وأخيرًا يجدُ نفسَهُ في طريقِه، وفي حالةٍ منَ الهدوءِ المفاجئِ، مثلِ شجرةٍ وحيدةٍ وكلِّ ورقةٍ فيهَا في غايةِ الاستكانةِ. وموقعُ المخيَّمِ مجرَّدُ مستطيلٍ خالٍ منَ العشبِ الذي أبيضَّ لونُه. وفي وقتٍ لاحقٍ منَ الصَّباحِ، يستيقظُ أصدقاؤُه ويقولون: "لقدْ رحلَ، والخريفُ قادمٌ."

سارَ سنفكين حافيَ القدمينِ بهدوءٍ. الغابةُ تطوّقُه، والسَّماءُ بدأتْ تمطرُ. تساقطُ المطرُ على قبَّعتِه الخضراءِ، وعلَى معطفِه المطريِّ الَّذي كانَ أخضرَ اللَّونِ أيضًا، انهمرَ وتردَّدَ وقعُه في أرجاءِ الغابةِ كلِّها، بينمَا احتضنَتْهُ الغابةُ موفِّرةً لهُ عزلةً لطيفةً ورائعةً.

كانت هناك وديانٌ متعدِّدةٌ على امتدادِ السَّاحلِ. والجبالُ تدحرجَتْ نحوَ البحرِ بأقواسٍ مهيبةٍ طويلةٍ، ونحوَ النُّتوءَاتِ والخلجانِ المتغلغلةِ عميقًا في الأرضِ البريَّةِ. وفي وادٍ من تلكَ الوديانِ عاشَتْ فيليجونكة وحدَها. سبقَ لسنفكين أنْ قابلَ الكثيرَ منْ جماعةِ الفيليجونك في أيَّامِه، وعرفَ أنَّهم يحبُّونَ إنجازَ أعمالِهم علَى طريقتِهم، وطبقًا لقواعدِهم الشَّخيفةِ الخاصَّةِ. بيدَ أنَّهُ عندمَا يمرُّ ببيتِ أيِّ فيليجونكة، لا يعمدُ إلى المشيِ بهدوءٍ مطلقًا.

كانتْ اعمِدة سِّياجِ بيتِ الفيليجونكة مستقيمة ومدبّبة، البوابة مقفلة والحديقة خالية من أيِّ شيءٍ، حبلُ الغسيلِ أُدخِلَ إلى البيتِ، واختفتْ كومة الحطبِ. لا أرجوحة ولا أثاث حديقةٍ، ولا شيءَ منَ الفوضى السَّاحرةِ الَّتي تحيطُ عمومًا أيَّ بيتٍ في الصَّيف، ليسَتْ هناكَ مجرفةُ حشائش ولا دِلاء، ولا قبَّعة منسيَّة، لا وعاءً حليبٍ للهرَّةِ، لا شيءَ منَ الأغراضِ البيتيَّةِ الأخرَى الَّتي تستقرُّ في الأرجاءِ من أجلِ اليومِ التَّالِي، وتجعلُ مظهرَ البيتِ مأهولًا وأنيسًا.

عرفَتِ الفيليجونكة أنَّ الخريفَ قدْ جاءَ، فأغلقَتْ علَى نفسِهَا في الدَّاخِلِ. بدَا بيتُها مهجورًا تمامًا وموصدًا. لكنَّهَا كانَتْ هناك كامنة عميقًا عميقًا خلفَ الجدرانِ العاليةِ المنيعةِ، وأشجارِ التَّنوبِ الكثيفةِ الَّتي حجبَتِ النَّوافذَ.

الانتقالُ الهادئُ منَ الخريفِ إلى الشِّتاءِ ليسَ فترةً مزعجَةً علَى الإطلاقِ. هي فترةُ حمايةِ الأشياءِ والتَّأكُّدُ من حصولِ المرءِ علَى مؤونةٍ احتياطيَّةٍ بقدرِ ما يمكنُه. إذْ منَ اللَّطيفِ أنْ يجمعَ حولَه كلَّ ممتلكاتِه، وأنْ يخزِّنَ من حولَه دفئَه

ويستجمع أفكارَهُ، ويتسلَّلَ إلى جحرٍ عميقٍ في الدَّاخِلِ، إلى معيارٍ منَ الأمانِ يستطيعُ فيهِ الذَّودَ عنْ نفسِه، وحمايةِ مَا هو مهمٌّ وثمينٌ. وحينَها ليقُمِ البردُ والظَّلامُ والعواصفُ بمَا هو أسوأُ منَ الأسوأ. ليحاولْ ذلكَ كلَّه تلمُّسَ طريقه صعودًا على الجدرانِ بحثًا عنْ وسيلةٍ للدُّخولِ، ولكنْ عبثًا، فكلُّ شيءٍ مُحكمُ الإغلاقِ. وهكذا يجلسُ المرءُ في الدَّاخلِ ضاحكًا ومستمتعًا بدفئِهِ وخلوَتِه، لأنَّهُ كانَ يتحلَّى بالبصيرةِ.

هناكَ أولئكَ الَّذينَ يبقونَ في بيوتِهم، وهناكَ أولئكَ الَّذينَ يسافرونَ، والحالُ

لطالَما جرَتْ علَى هذَا المنوالِ. في وسعِ المرءِ أنْ يختارَ ما يشاءُ، إلَّا أنَّ عليَهِ الاختيارَ بينمَا ما زالَ لديهِ وقتٌ ثمَّ لا يغيِّرُ رأيَهُ بعدَ ذلكَ أبدًا.

بداتِ الفيليجونكة تنفضُ السّجادَ وراءَ بيتِها. بذلتْ في ذلِك جلَّ جهدِها بهوسِ مدروسٍ، ولمْ يبقَ أحدٌ إلّا وسمعَ كَم استهواهَا نفضُ السّجادِ. مشَى سنفكين، أشعلَ غليونَه وفكّرَ: "إنَّهم يستيقظونَ الآنَ في وادِي المومين؛ بابا مومين يشغِّلُ المنبِّهَ وينقرُ على البارومتر، ماما مومين توقدُ المدفأةَ، مومين ترول يخرجُ إلى الشُّرفةِ، ويرى أنَّ موقعَ مخيَّمِي قدْ هُجِرَ. ينظرُ في صندوقِ البريدِ عندَ الجسرِ ويكتشفُ أنَّهُ فارغٌ أيضًا. نسيتُ رسالةَ الوداعِ؛ لمْ أملكِ الوقتَ. لكنَّ الرَّسائلَ الّتي أكتبُهَا متشابهةٌ كلُّها: "أعودُ في نيسَانٍ، ابقوا بأمانٍ". "أنَا راحلٌ وأعودُ في الرَّبيعِ، اعتنُوا بأنفسِكُم". وهوَ على أيِّ حالٍ يعرفُ.

وهكذَا نسيَ سنفكين مومين ترول بمثلِ هذهِ السُّهولةِ.

في الغسقِ وصلَ إلى خليجٍ طويلٍ يكمنُ في ظلٍّ دائمٍ بينَ الجبالِ. وعلى مبعدةٍ منَ الخليجِ شعشعَتْ بعضُ الأضواءِ، حيثُ تلاصقتْ مجموعةٌ منَ البيوتِ معًا.

لا أحد كانَ في الخارجِ تحتَ المطرِ.

هُنا في هذَا المكانِ عاشَ الهيميولن والميميل وغافسي، وتحتَ كلِّ سقفٍ عاشَ أحدٌ ما ممَّن قرَّرُوا البقاءَ حيثُ هم، أناسٌ أرادُوا البقاءَ في بيوتِهم. تسلَّلَ سنفكين خلالَ أفنيةِ بيوتِهم الخلفيَّةِ، ملتزمًا بالمشيِ بين الظِّلالِ، وبقدرِ ما تسنَّى لهُ منَ الهدوءِ، لأنَّهُ لم يرغبْ في مخاطبَةِ روحٍ واحدةٍ. بيوتٌ كبيرةٌ وبيوتٌ صغيرةٌ متلاصقةٌ معًا، بعضُها متَّصلٌ ومشتركٌ بمزاريبَ واحدةٍ وبصناديقِ القمامةِ، ينظرُ أصحابُها في نوافذِ جيرانِهم، ويشمُّونَ رائحةَ طعامِهم. وكذلِكَ المداخنُ والطَّاولاتُ العاليةُ وأنابيبُ التَّصريفِ، وفي الأسفلِ الممرَّاتُ المطروقةُ كثيرًا الّتي تقودُ من بابٍ إلى بابٍ. مشَى سنفكين بسرعةٍ وبلا أدنَى حسٍّ، وفكّرَ: "أوه يا هذِه البيوت، كم أكرهُكِ!"

أظلمَتِ الدُّنيا تقريبًا في هذهِ الآونةِ. وقاربُ الهيميولن يستقرُّ تحتَ أغصانِ الحورِ، يغطِّيهِ نسيجٌ منَ المشمَّعِ الرَّماديِّ. وأعلَى قليلًا تستقرُّ السَّاريةُ، والمجاديفُ والدَّفَّةُ. كانَتْ كلُّها كالحةً ومتصدِّعةً جرَّاءَ مرورِ عديدٍ منْ فصولِ

إلصَّيفِ عليهَا، منْ غيرِ انْ تستخدَمَ ابدًا. اعترت الدّهشة سنفكين ممّا راه، بيدَ أنّه تابعَ طريقَه.

لكن في قاربِ الهيميولن كانَ توفّت متقوقعًا على نفسِه هناكَ، سمعَ وقعَ خطواتِ سنفكين، وحبسَ إنفاسَهُ. ثمَّ ما لبثَ وقعُ الخطواتِ أنْ بدأ يبتعدُ شيئًا فشيئًا، وخيَّمَ السُّكونُ ثانيةً، ولا شيء لامسَ نسيجَ المشمَّعِ سوى المطرِ.

آخرُ بيتٍ هناك قامَ منفردًا تحتَ جدارٍ أخضرَ من أشجارِ التَّنوبِ، ومنْ بعدِهِ بدأتِ البريَّةُ. حثَّ سنفكين الخُطى أسرعَ فأسرعَ مباشرةً نحوَ أعماقِ الغابةِ. إلّا أنَّ بابَ البيتِ الأخيرِ ذاكَ فرجَ قليلًا وصاحَ صوتٌ مُغرقٌ في القِدَمِ: ”إلى أينَ تمضِي؟“

”لا أدرِي،“ ردَّ سنفكين.

أُغلِقَ البابُ ثانيةً، وولجَ سنفكين غابتَه، وأمامَه مئاتُ الأميالِ منَ الصَّمتِ.

2

توفْت

مرَّ الوقتُ، واستمرَّ المطرُ في التَّساقطِ. لمْ يسبقْ من قبلُ قطُّ أنْ جاءَ الخريفُ مصحوبًا بمطرٍ غزيرٍ. الوديانُ على امتدادِ السَّاحلِ غرقتْ تحتَ ثقلِ ذلكَ الماءِ الَّذي سالَ على سفوحِ التِّلالِ، وأعشابُ الأرضِ تعفَّنت بدلًا عن أنْ تُذبُلَ. فجأةً بدَا الصَّيفُ بعيدًا جدًّا كمَا لو أنَّهُ لم يهلَّ قطُّ، والمسافاتُ بينَ البيوتِ لاحَتْ أطولَ بكثيرٍ، ولم يبقَ أحدٌ إلَّا وزحفَ إلى داخلِهَا.

في أعماقِ جؤجؤِ قاربِ الهيميولن عاشَ توفْت، وَلا أحد عرفَ أنَّه يعيشُ هناك. مرَّةً واحدةً فقط في الرَّبيعِ كانَ المُشمَّعُ يُرفعُ وشخصٌ ما يطلِي القاربَ بالقطرانِ، ويُصلِحُ أسوأَ ما فيهِ مِن شقوقٍ. ثمَّ يُعادُ المشمَّعُ من جديدٍ، وتحتَهُ يواصلُ القاربُ انتظارَهُ فحسبُ. لمْ يملكِ الهيميولن الوقتَ مطلقًا ليخرِجَ قاربَهُ إلى البحرِ، وهو في جميعِ الأحوالِ لا يعرفُ كيفَ يبحرُ بهِ.

أحبَّ توفْت رائحةَ القطرانِ، وكانَ حريصًا جدًّا على الإقامةِ في مكانٍ يستسيغُ رائحتَه. أحبَّ الحبلَ الملتفَّ الَّذي دعمَهُ بقبضتِهِ القويَّةِ، وصوتَ المطرِ غيرَ المنقطعِ. معطفُهُ الفضفاضُ كانَ يبعثُ فيهِ الدِّفءَ، وامتلاكُ المرءِ لهُ شيءٌ مهمٌّ كثيرًا خلالَ ليالِي الخريفِ الطَّويلةِ.

في المساءِ، بعدمَا يغادرُ النَّاسُ إلى بيوتِهم، ويلفُّ السُّكونُ الخليجَ، يروِي توفْت لنفسِهِ حكايتَهُ الخاصَّة؛ حكايةٌ هيَ من أوَّلِها إلى آخرِهَا عن عائلةٍ سعيدةٍ، يرويهَا لنفسِهِ إلى أنْ ينامَ، وفي المساءِ التَّالي يتابعُ الحكايةَ من حيثُ توقَّفتْ، أو يبدأُ ثانيةً في قصِّهَا على نفسِهِ من بدايتِهَا.

يستهلُّ توفْت الحكايةَ عمومًا بوصفِ وادي المومين السَّعيدِ، ثمَّ ينزلُ على مهلٍ نحوَ أسفلِ المنحدراتِ حيثُ تنمو أشجارُ الصَّنوبرِ القاتمةُ وأشجارُ البتولا الشَّاحبةُ. يغدُو الجوُّ أدفأَ، فيحاولُ أنْ يصفَ لنفسِهِ شعورَه عندمَا ينفتحُ

الوادي على حديقة خضراءَ بَرِّيَّةٍ تضيْئُها الشمسُ، وأوراق الأشجارِ اليانعة تتمايلُ في نسيمِ الصَّباحِ، وكذلِكَ العشبُ الطَّريُّ المشعشعُ حواليهِ برقع منْ أشعَّةِ الشَّمسِ، وطنينِ النَّحلِ، وكلُّ شيءٍ يفوحُ برائحةٍ طيِّبةٍ، ثمَّ يمشي الهوينَى إلى أنْ يسمعَ خريرَ النَّهرِ. كانَ منَ المهمِّ بالنِّسبةِ إليهِ ألَّا يغيِّرَ تفصيلًا واحدًا: مرَّةً وضعَ بيتًا صيفيًّا قربَ النَّهرِ، بيدَ أنَّهُ لمْ يجدْ ذلِكَ صائبًا. كلُّ ما توجَّبَ أنْ يظهرَ هناكَ الجسرُ وصندوقُ البريدِ. ثمَّ تأتِي شُجيراتُ اللِّيلكِ وكوخُ حطبِ بابا مومين، وكلاهمَا برائحتيهمَا الخاصَّتينِ من مزيجِ الصَّيفِ والأمانِ.

يكونُ الوقتُ مبكِّرًا نوعًا ما وهادِئًا جِدًّا. ويصبحُ في وسع توفْت أنْ يرَى كرَةَ الزِّينةِ منَ الزُّجاجِ الأزرقِ، القائمةَ على عمودٍ في أسفلِ الحديقَةِ. تلِكَ كرةُ بابا مومين البلوريَّةُ، وهي أجودُ مَا في الوادِي بأسرِهِ. كانَتْ كرةً سحريَّةً.

العشبُ هناك نامٍ وطويلٌ وزاخرٌ بالزُّهورِ، وهذَا يصفُهُ توفْت لنفسِه، ويسهبُ

أيضًا في الحديثِ عن الممرَّاتِ المجروفةِ بعنايةٍ، والمُحاطَةِ بالأصدافِ وشذراتِ الذَّهبِ، ويماطلُ في طريقهِ عندمَا يصلُ إلى رقع الشَّمسِ الصَّغيرةِ المحبَّبةِ إليهِ كثيرًا. يسمحُ للرِّيحِ أنْ تتنهَّدَ في الأعالِي فوقَ الوادِي وخلالَ الغابةِ عندَ سفوحِ التِّلالِ، ثمَّ تهمدُ لتعودَ السَّكينةُ المثاليَّةُ مرَّةً أخرَى. أشجارُ التُّفَّاحِ مزهرةٌ. يُحمِّلُ بعضَ الأشجارِ بالتُّفَّاحِ، ثمَّ لا يلبثُ أنْ يزيلَه منَ الصُّورةِ، ينصبُ أرجوحةً، ويبعثرُ نشارةَ خشبٍ صفراءَ أمامَ كوخِ الحطبِ، وأخيرًا يصبحُ قربَ البيتِ. هناكَ حوضُ أزهارِ الفاوانيا، ثمَّ تليهِ الشُّرفةُ... الشُّرفةُ مستقرَّةٌ تستمتعُ بشمسِ

الصَّباحِ، وهيَ بالضَّبطِ كمَا تخيَّلهَا توفْت: السُّورُ المزخرفُ بمنشارِ تخريمٍ، زهرُ العسلِ، الكرسيُّ الهزَّازُ، كلُّ شيءٍ.

ما دخلَ توفت قط البيتَ، بل انتظرَ في الخارجِ. انتظرَ خروجَ ماما مومين إلى عتبةِ الدَّرجِ.

لسوءِ الحظِّ، كانَ توفْت يستغرقُ في النَّومِ عادةً عندَ تلكَ النُّقطةِ مرَّةً واحدةً فقط التقط لمحةً من أنفِها في المدخلِ، أنفٌ مستديرٌ وودودٌ، كلُّ مَا في ماما مومين مستديرٌ كمَا ينبغِي أنْ تكونَ استدارةُ الأمَّهاتِ.

ها هو توفْت يتجوَّلُ في الوادي ثانيةً. فعلَ هذا مئاتِ المرَّاتِ، وفي كلِّ مرَّةٍ تصبحُ الإثارةُ في تكرارِ تخيُّلاتِه أشدَّ قوَّةً. فجأةً حطَّ سحابٌ رماديٌّ قاتمٌ على الأرضِ، سحابٌ ملطَّخٌ، وما عادَ توفت يرَى سوى الظَّلامِ في عينَيهِ المطبقتَين، ولا يسمعُ سوى مطرِ الخريفِ اللانهائيّ ينهمرُ على المشمَّعِ. حاولَ توفت العودةَ إلى الوادي، ولمْ ينجحْ في مسعَاهُ.

حدثَ هذَا عددًا لا بأسَ به منَ المرَّاتِ في الأسبوعِ الماضِي، وفي كلِّ مرَّةٍ ينحدرُ السَّحابُ أبكرَ منَ السَّابقِ. قبلَهُ بيومٍ وصلَ إلى كوخِ الحطَبِ، والآنَ أصبحَ الظَّلامُ عندَ شجيراتِ التِّيلك. تكوَّمَ توفت في معطفِهِ وفكَّرَ: "قدْ لا أتمكَّنُ غدًا منَ الوصولِ إلى النَّهرِ. لا يبدُو أنَّني قادرٌ على وصفِ الأشياءِ كَي أتمكَّنَ من رؤيَتِها بعينِ خيالِي أكثرَ ممَّا فعلْتُ، كلُّ شيءٍ يرجعُ إلى الوراءِ."

نامَ توفْت برهةً. عندمَا صحَا في العتمةِ عرفَ مَا عليهِ فعلهُ. سيغادرُ قاربَ الهيميولن، ويسلكُ طريقَه إلى وادِي المومين، يصعدُ إلى الشُّرفةِ، يفتحُ البابَ ويخبرُهم منْ يكونُ.

حالمَا اتَّخذَ توفْت قرارَهُ عادَ إلى النَّومِ ثانيةً، ونامَ اللَّيلةَ بأكملِهَا من غيرِ أنْ يحلمَ.

3

الفيليجونكة

في أحدِ أيَّامِ الخميسِ من شهرِ تشرينَ الثَّاني انقطعَ المطرُ، فقرَّرتِ الفيليجونكة أنْ تنظِّفَ النَّوافذَ في العليَّةِ. سخَّنَتْ بعضَ الماءِ في المطبخِ، وأضافَتْ إليهِ القليلَ منَ الصَّابونِ، القليلَ فقط، ثمَّ حملَتِ الوعاءَ إلى الأعلى، وضعَتْهُ على كرسيٍّ وفتحَتِ النَّافذةَ. عندئذٍ انزلقَ شيءٌ من إطارِ النَّافذةِ وسقطَ قربَ كفِّها. بدا تقريبًا يشبهُ زغبَ القطنِ، لكنَّ الفيليجونكة خمَّنَتْ في الحالِ ما هوَ؛ شرنقةٌ بغيضةٌ وفيها يرقةٌ بيضاءُ باهتةٌ. ارتعدَتْ وأبعدَتْ يديهَا. أينمَا ذهبَتْ، ومهمَا فعلَتْ، صادفَتْ دائمًا أشياءَ زاحفةً مخيفةً، كانَتْ في كلِّ مكانٍ! تناولَتْ منفضتَهَا وبحركةٍ سريعةٍ كنسَتِ الشَّرنقةَ إلى الخارجِ، وراقبَتْهَا تتدحرجُ فوقَ عتبةِ النَّافذةِ، تهوي نزولًا وتختفِي.

«فظيعةٌ،» دمدمَتِ الفيليجونكة، وهزَّتْ منفضتَها. حملَتِ الوعاءَ وتسلَّقتِ عتبةَ النَّافذةِ لتغسلَهَا منَ الخارجِ.

كانَتِ الفيليجونكة تنتعِلُ خفيَّ السّحادِ، وحالمَا أصبحَتْ علَى العتبةِ المائلةِ بدأَتْ تنزلقُ إلى الوراءِ. لمْ يكنْ لديهَا متَّسعٌ منَ الوقتِ لتشعرَ بالخوفِ. ألقَتْ جسمَهَا النَّحيلَ إلى الأمامِ بسرعةِ البرقِ، وبومضةٍ مسبَّبةٍ للدوارِ انحدرَتْ نزولًا علَى العتبَةِ، وحطَّتْ علَى بطنِهَا، خفَّاهَا يلامسَانِ الحافَّةَ، وهناكَ استقرَّتْ. وآنذاك اعترَاهَا الخوفُ. سرَى فيهَا والتصَقَ في داخلِها مثلَ مذاقِ حبرٍ في الحنجرةِ. رمشَتْ، لكنَّ عينَيهَا رأَتَا الأرضَ بعيدةً جدًّا في الأسفلِ، منْ شدَّةِ الرُّعبِ والدَّهشةِ أطبقَ فكَّاهَا بقوَّةٍ وحالَا دونَ أنْ تتمكَّنَ منَ الصُّراخِ.

علَى أيِّ حالٍ، لمْ يكنْ هناكَ أحدٌ ليسمَعَها. فالفيليجونكة تخلَّصَتْ أخيرًا من جميعِ الأقاربِ والأصدقاءِ المزعجينَ. وصارَ عندَهَا الوقتُ الكافي بقدرِ مَا تشتهِي لتعتنِيَ ببيتِهَا وبخلوَتِهَا وبسقوطِهَا منْ علَى سقفِ بيتِهَا بينَ الخنَافسِ والدِّيدانِ الَّتِي يتعذَّرُ وصفُهَا في الحديقةِ.

قامَتِ الفيليجونكة بحركةٍ زاحفةٍ مؤلمَةٍ إلى الأعلى، تلمّسَ كفاهَا سطحَ البيتِ المعدنيَّ الأملسَ، وسرعانَ مَا انزلقَتْ ثانيةً وانتهَتْ منْ حيثُ بدأتْ. النَّافذةُ ما انفكَّتْ تتخبَّطُ منَ الرِّيحِ، والرِّيحُ تنهَّدَتْ في الحديقةِ، والوقتُ مرَّ. تساقطَتْ بضعُ قطراتٍ منَ المطرِ على السَّطحِ.

ثمَّ تذكَّرتِ الفيليجونكة مانعَ الصَّواعقِ الَّذي يصلُ إلى العلِّيَّةِ منْ طرَفِ البيتِ الآخرِ. ببطءٍ شديدٍ بدأتْ تسحَبُ جسمَهَا على طولِ حافَّةِ السَّطحِ، قليلاً جدًّا في البدايةِ بقدمٍ واحدةٍ، ثمَّ قليلاً جدًّا بالقدَمِ الثَّانيةِ. عيناهَا مطبقتَانِ بقوَّةٍ، وبطنُهَا تضغطُ السَّطحَ. زحفَتِ الفيليجونكة حولَ بيتِهَا الكبيرِ، وطوالَ الوقتِ مَا فتِئَتْ تتذكَّرُ بأنَّهَا تعانِي منَ الدُّوارِ، وما يصيرُ عليه حالُهَا عندمَا يصيبُهَا. ثمَّ أحسَّتْ بكفِّهَا يلمسُ مَانِعَ الصَّواعقِ، فقبضَتْ عليهِ تمسُّكًا بالحياةِ الغاليةِ،

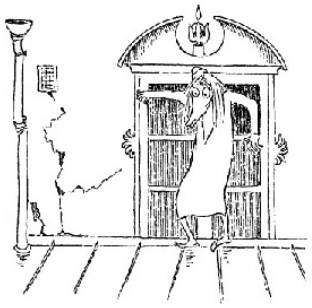

وبعينَيهَا اللتينِ مَا زالَتَا مطبقتَينِ بقوَّةٍ، ارتفعَتْ بحذرٍ نحوَ الأرضيَّةِ في الأعلى؛ في تلكَ اللَّحظةِ، لمْ يكنْ هناكَ أيُّ شيءٍ آخرُ في العالمِ بأسرِهِ سوى سلكٍ نحيلٍ وفيليجونكة متدلِّيةٍ منهُ.

قبضَتْ بإحكامٍ على الحاشيةِ الخشبيَّةِ الضَّيِّقةِ الَّتي تطوِّقُ العلِّيَّةَ، رفعَتْ جسمَهَا إلى الأعلى وانبطحَتْ بلا حراكٍ. شيئًا فشيئًا نهضَتْ على أوصالِهَا الأربعةِ، وانتظرَتْ إلى أنْ توقَّفتْ ساقاهَا عنِ الارتعاشِ، ومَا عادَتْ تشعرُ أنَّهمَا تتصرَّفانِ بلا انضباطٍ عجيبٍ. خطوةً تلوَ خطوةٍ أخذَتْ تتقدَّمُ، وجهُهَا قبالةَ الجدارِ. وَصلَتْ إلى نافذةٍ بعدَ نافذةٍ، لكنَّهَا اكتشفَتْ أنَّهَا كلَّهَا مغلقةٌ. كانَ أنفُهَا طويلاً جدًّا وعرقلَ تقدُّمَهَا، تهدَّلَ شعرُهَا على عينيهَا ودغدغَ أنفَهَا: «يجبُ ألَّا أعطسَ،» فكَّرتْ، «لو عطسْتُ سأفقدُ توازنِي... يجبُ ألَّا أنظرَ، بلْ حتَّى يجبُ ألَّا أفكِّرَ. كعبُ أحدِ خفَّيَّ ملتوٍ، ولا أحدٌ يبالِي بمَا قد يحدثُ لِي، مِشدِّي انكمشَ وارتفعَ إلى مكانٍ مَا فِي جسمِي، وفِي أيِّ ثانيةٍ الآنَ مِن هذهِ الثَّوانِي الرَّهيبةِ...»

عادَ المطرُ إلى الانهمارِ مجدَّدًا. فتحَتِ الفيليجونكة عينَيهَا، ورأَتِ السَّطحَ المائلَ من فوقِ كتفِهَا، وحافَّةَ السَّقفِ، واحتمالَ السُّقوطِ منهَا، ولا أيَّ شيءٍ للتمسُّكِ بهِ، وبدأتْ ساقاهَا ترتعشَانِ ثانيةً. لفَّتْ منْ حولِهَا الدُّنيا ولفَّتْ وأصابَهَا الدُّوارُ. انتزعَهَا منَ الحائطِ، والحافَّةُ الَّتي تقفُ عليهَا أصبحَتْ ضيِّقةً

ونحيلة مثلَ نصلِ شفرَةٍ، وفي لحظةٍ لا نهائيَّةٍ تعثَرَتْ عائدة على طولِ الطَّريقِ إلى حياتِهَا الفيليجونكيَّةِ كلِّها. ببطءٍ شديدٍ مالَتْ إلى الوراءِ، بعيدًا عنِ الأمانِ ونحوَ الزَّاويةِ الحتميَّةِ الَّتي ستسقطُ منهَا، علقَتْ هناكَ لمَّا بدَا لهَا أنَّهُ أبديَّةٌ أخرَى، ثمَّ عادَتْ وغرقَتْ إلى الأمامِ.

أصبحَتْ لا شيءَ على الإطلاقِ، مجرَّدَ كتلةٍ ما تحاولُ جعلَ نفسِها مسطَّحةً قدرَ المستطاعِ، وتتابعُ التَّقدُّمَ. هناكَ كانَتِ النَّافذةُ المنشودةُ. والرِّيحُ خبطَتْهَا وأغلقتْهَا بإحكامٍ. كانَ إطارُ النَّافذةِ أجردَ وأملسَ ولا شيءَ فيهِ للتعلُّقِ بهِ وجذبِهِ، ولا حتَّى أصغرُ مسمارٍ. حاولَتِ الفيليجونكة معالجةَ النَّافذةِ بدبُّوسِ شعرٍ، بيدَ أنَّهُ أعوجَّ فقط. لمحَتْ في الدَّاخلِ وعاءَ الماءِ الصَّابونيِّ والمنفضةَ، صورَةٌ جامدةٌ لشيءٍ عاديٍّ؛ عالمٌ بعيدُ المنالِ.

المنفضةُ! المنفضةُ كانَتْ عالقةً بإطارِ النَّافذةِ... بدأَ قلبُ فيليجونكة يقصفُ - استطاعَتْ لمحَ جزءٍ ضئيلٍ من طرفِ المنفضَةِ بارزًا، مسكَتْهُ، أوه... بحذرٍ بالغٍ، وسحبَتْهُ بلطفٍ... أوه، رجاءً لا تتكسَّرِي، أوه رجاءً لتكُنْ منفضَتِي الجديدةَ وليسَتِ القديمَةَ... لنْ أحتفظَ أبدًا بأيِّ منفضةٍ قديمةٍ ثانيةً، لنْ أحتفظَ أبدًا بأيِّ شيءٍ قديمٍ ثانيةً، سأكونُ مبذِّرةً، سأكفُّ عنِ التَّنظيفِ، فأنَا في جميعِ الأحوالِ أفرِطُ فيهِ، أنا صعبةُ الإرضاءِ... سأكونُ شيئًا مختلفًا تمامًا وليسَ فيليجونكة... هذَا ما فكَّرَتْ فيهِ الفيليجونكة، بتوسُّلٍ، لكن بلا جدوَى، لأنَّ أيَّ فيليجونكة لا يمكنُ أبدًا، طبعًا، أنْ تكونَ أيَّ شيءٍ ما عدَا فيليجونكة.

صمدَتِ المنفضَةُ. ببطءٍ انفتحَتِ النَّافذةُ بينَما خبطَتِ الرِّيحُ الجدارَ، وسارعَتِ الفيليجونكة إلى إلقاءِ جسمِهَا بتهوُّرٍ نحوَ أمانِ العليَّةِ، وانبطحَتْ على الأرضيَّةِ، وبدأَ رأسُهَا يلفُّ ويدورُ، واعتراهَا شعورٌ فظيعٌ بالتَّوعُّكِ.

فوقَ رأسِهَا، تأرجَحَ مصباحُ السَّقفِ ذهابًا وإيابًا معَ الرِّيحِ، واهتزَّتْ شرَّاباتُه جيئةً ورواحًا بمسافةٍ منتظمةٍ منْ واحدةٍ إلى أخرَى، وكلٌّ منهَا تنتهي بخرزةٍ صغيرةٍ. استدارَتِ الفيليجونكة، وحملقَتْ فيها باهتمامٍ، مأخوذةً تمامًا بالشَّرَّاباتِ الصَّغيرةِ الَّتي لمْ تتذكَّرْ مطلقًا أنَّهَا رأتْهَا من قبلُ، ومطلقًا من قبل لمْ تلاحظْ أنَّ مظلَّةَ المصباحِ حمراءُ اللَّونِ. حمرةٌ جميلةٌ جدًّا تذكِّرُها بغروبِ الشَّمسِ. بلْ حتَّى الخطَّافُ في السَّقفِ بدَا شكلُهُ جديدًا عليهَا وغيرَ مألوفٍ.

ما لبثَتْ أنْ بدأَتْ تشعرُ بقليلٍ منَ التَّحسُّنِ. وأخذَتْ تفكِّرُ كمْ أنَّهُ منَ الغريبِ أنَّ أيَّ شيءٍ يتدلَّى من خطَّافٍ يتدلَّى نزولًا وليسَ في أيِّ اتجاهٍ آخرَ، وتساءَلَتْ على أيِّ شيءٍ يعتمدُ ذلكَ. تغيَّرَتْ معالِمُ العليَّةِ، بدَا كلُّ ما فِيهَا جديدًا عليهَا. مضَتِ الفيليجونكة إلى المرآةِ، وتأمَّلَتْ نفسَهَا. كانَ أحدُ جانبَيِّ أنفِهَا مفعمًا بالخدوشِ، وشعرُهَا متهدِّلًا ورطبًا. تراءَى لهَا أنَّ عينَيهَا أصبحتَا مختلفتَينِ: «عجيبٌ حصولُنا على عينَينِ لنرَى بهمَا،» فكَّرَتْ، «وعجيبٌ كيفَ نرَى بهمَا...!»

اخذ البردَ يدبّ فيها بسبب المطر، ولأنها تعثّرت بمُجمَل مَا طرا في حياتها خلالَ ثانيةٍ واحدةٍ، قرَّرَتْ أنْ تعدّ لنفسها فنجانَ قهوةٍ. عندمَا فتحَتِ الخزانة في المطبخ، رأتْ لأوَّلِ مرَّةٍ أنَّ الخزفيَّاتِ الّتي لديها أكثرُ ممَّا تحتاجُه. أوانِي تقديمٍ وأوانِي تحميصٍ، وأكداسٌ منَ الصُّحونِ أكثرُ منَ اللّازمِ، مئاتُ الأشياءِ ليأكلَ المرءُ منهَا ويأكلَ عليهَا، وليسَت هناكَ سوَى فيليجونكة واحدةٌ، وإلى من ستؤولُ بعدمَا تموتُ؟

«لنْ أموتَ مطلقًا،» همسَتْ لنفسِهَا، وخبطَتْ بابَ الخزانَةِ وهيَ تغلقُهُ. هرعَتْ إلى غرفةِ الجلوسِ، ترنَّحَتْ وسط الأثاثِ في غرفةِ نومِهَا وخرجَتْ منهَا، أندفعَتْ إلى غرفةِ الضُّيوفِ وفتحَتِ السَّتائِرَ ثمَّ صعدَتْ إلى العليَّةِ، وكانَتْ كذلكَ ساكنةً مثلَ بقيَّةِ الغرفِ. تركَتِ الأبوابَ مفتوحَةً، وفتحَتْ خزانة الملابسِ حيثُ توجدُ حقيبةُ السَّفرِ، وفي النِّهايةِ أدركَتْ مَا ستفعلُهُ؛ ستذهَبُ وتعيشُ معَ شخصٍ مَا. أرادَتْ أنْ ترَى النَّاسَ. أناسٌ لطيفون يدردشونَ ويدخلونَ ويخرجونَ ويشغلونَ يومَهم بأكملِهِ، بحيثُ لا يبقَى لديهم وقتٌ للأفكارِ الفظيعَةِ. لكنْ

ليسَ الهيميولن، ولا الميمبل، ليس الميمبل حتمًا! بلْ عائلةُ المومين. والوقتُ قدْ حانَ تقريبًا لتذهبَ وتزورَ ماما مومين. على المرءِ أنْ يقرِّرَ بخصوصِ هذهِ الأمورِ وهوَ في مزاجٍ معيَّنٍ، وبسرعةٍ أيضًا، قبلَ أنْ يتلاشى ذلِكَ المزاجُ.

أخرجَتِ الفيليجونكة حقيبةَ السَّفرِ، ووضعَتْ فيهَا زهريَّتها الفضِّيَّةَ، يجبُ أنْ تحصلَ ماما مومين عليهَا. ألقَتِ الماءَ على السَّطحِ وأغلقَتِ النَّافذةَ. جفَّفَتْ شعرَهَا ولفَّتهُ باللفافاتِ، ثمَّ احتسَتْ شايَ ما بعدَ الظُّهرِ. في هذهِ الآونةِ هدأَ البيتُ، وعادَ إلى طبيعتِهِ المعهودَةِ. عندمَا غسلَتِ الفيليجونكة فنجانَ الشَّايِ أخرجَتِ الزَّهريَّةَ الفضِّيَّةَ من حقيبةِ السَّفرِ، ووضعَتْ مكانَهَا أخرَى منَ الخزفِ الصِّينيِّ. أضاءَتْ مصباحَ السَّقفِ؛ لأنَّ المطرَ جعلَ الدُّنيا تظلمُ في وقتٍ مبكِّرٍ.

«ماذَا دهَانِي بحقِّ السَّماءِ!» فكَّرَتْ فيليجونكة. «مظلَّةُ المصباحِ ليسَتْ حمراءَ أبدًا. بل هيَ أقربُ إلى اللَّونِ البُنيِّ. معَ ذلِكَ، أنَا راحلةٌ في جميعِ الأحوالِ!»

4

مطرٌ

أصبحَ الوقتُ في أواخرِ الخريفِ. تابعَ سنفكين طريقَهُ نحوَ الجنوبِ. في بعضِ الأحيانِ نصَبَ خيمَتَهُ وسمحَ للوقتِ أنْ يمرَّ كما يحلو لهُ بينما تحوَّلَ في الأنحاءِ وتأمَّلَ الأشياءَ. في الحقيقةِ لمْ يُجهدْ ذهنَهُ في التَّفكيرِ، أو في تذكُّرِ أيِّ شيءٍ معيَّنٍ، ونامَ كثيرًا. كانَ متنبِّهًا ولكنْ ليسَ فضوليًا مطلقًا، ولمْ يقلقْ بخصوصِ إلى أينَ هوَ ذاهبٌ - لمْ يرغبْ إلَّا في مواصلةِ التَّحرُّكِ.

كانَتِ الغابَةُ مُثقلةً بالمطرِ، والأشجارُ في منتهَى الاستقرارِ. كلُّ شيءٍ ذبلَ ومَاتَ، لكِنْ في الأرضِ حيثُ حديقةُ أواخرِ الخريفِ السرِّيَّةِ، نمَتْ بحيويَّةٍ عظيمةٍ مباشرةً منَ التُّربَةِ المتحلِّلةِ نباتاتٌ غريبةٌ لمَّاعَةٌ ومنتفِخَةٌ لا شأنَ لهَا أبدًا بالصَّيفِ. أغصانُ العنَّابِ المتيقِّظةُ كانَتْ ذاتَ خضرةٍ مصفرَّةٍ، والتُّوتُ البرِّيُّ مصطبغٌ بلونٍ قانٍ كلونِ الدَّمِ. الأشنَّةُ والطِّحالبُ المتوارِيَةُ بدأَتْ تنبثِقُ، ونمَتْ مثلَ سجَّادةٍ كبيرةٍ طريَّةٍ، وتوسَّعَتْ إلى أنْ سيطرَتْ على الغابَةِ بأسرِهَا. شاعَتْ هنَاكَ في كلِّ مكانٍ ألوانٌ جديدةٌ قويَّةٌ، وتوتُ أشجارِ الرَّوَانِ الأحمرُ لمعَ في جميعِ الأرجاءِ. أمَّا السَّراخسُ فاصطبغَتْ بالسَّوادِ.

تولَّدَ لدَى سنفكين شعورٌ بأنَّه يريدُ تأليفَ الأغانِي. انتظرَ إلَى أنْ أصبحَ متأكِّدًا جدًّا منْ ذلِكَ الشُّعورِ، وفي إحدَى الأمسيَاتِ أخرَجَ الهارمونيكا من قاعِ حقيبَةِ الظَّهرِ. في شهرِ آبَ، في مكانٍ ما فِي وادِي المومين، عزَفَ خمسَةَ سلالِمَ موسيقيَّةٍ كانَتْ بلَا شكٍّ صالحَةً لتوفيرِ لازِمَةِ لحنٍ رائعَةٍ. جاءَتْ بطريقَةٍ تلقائيَّةٍ تمامًا، كمَا تفعَلُ النَّغماتُ عندمَا تُتْرَكُ بسلامٍ. والآنَ جاءَ الوقتُ لعزفِهَا ثانيةً والسَّماحِ لهَا لتصبحَ أغنيةً عنِ المطرِ.

استكانَ سنفكين وانتظرَ. لمْ تأتِهِ السَّلالِمُ الموسيقيَّةُ الخمسَةُ. تابعَ الانتظارَ منْ غيرِ أنْ ينفدَ صبرَهُ، لأنَّه عرَفَ كيفَ هيَ طبيعةُ الألحانِ. لكنَّ الشَّيءَ

الوحيدَ الذي طرقَ مسامعَهُ كانَ صوتَ المطرِ ووقعَ مائِهِ الجاري. شيئًا فشيئًا بدأتِ الدُّنيا تُظلِمُ. أخرَجَ سنفكين غليونَهُ، ثمَّ عادَ ووضعَهُ جانبًا.

أدركَ أنَّ السَّلالمَ الموسيقيَّةَ الخمسةَ لا بدَّ مِنْ أنَّهَا في مكانٍ مَا في وادي المومين، وأنَّهُ لنْ يعثرَ عليها إلَّا إذا عادَ من حيثُ أتى. هناكَ ملايين من الألحانِ يسهلُ العثورُ عليهَا، وستكونُ هناكَ ألحانٌ أخرَى جديدةٌ دائمًا. لكنَّ سنفكينَ تركَها بحالِها، فهي ألحانٌ صيفيَّةٌ تصلحُ لأيِّ شخصٍ. زحفَ إلى خيمَتهِ وحشرَ نفسَهُ في كيسِ النَّومِ ورفعَهُ فوقَ رأسِهِ. همسُ المطرِ الواهِي ووقعُ مائِهِ المنهمرِ كانَ هناكَ، وفيهِ نعمةُ العزلةِ الرَّقيقةِ والكمالُ. لكن أيُّ شيءٍ يعنِيه المطرُ لَهُ ما دامَ غيرَ قادرٍ على تأليفِ أغنيةٍ عنهُ؟

5

الهيميولن

استيقظَ الهيميولن ببطءٍ وميَّزَ من يكونُ، متمنِّيًا لو أنَّهُ شخصٌ آخرُ لا يعرفُهُ. بلْ حتَّى شعرَ أنَّهُ أكثرُ إعياءً ممَّا كانَ عليهِ عندمَا أوَى إلى السَّريرِ، وهَا هوَ بانتظارِهِ - يومٌ آخرُ سيستمرُّ إلى المساءِ ثمَّ يليهِ يومٌ آخرُ وآخرُ وآخرُ، وجميعُهَا متشابهةٌ كمَا هي حالُ الأيَّامِ كلِّهَا الَّتِي يعيشُهَا أيُّ هيميولن.

زحفَ تحتَ غطاءِ الفراشِ، ودفَنَ أنفَهُ في الوسادَةِ، ثمَّ نقلَ بطنَهُ إلى طرفِ السَّريرِ حيثُ كانَتِ الملاءَاتُ باردَةً. استخونَ على السَّريرِ بأكملِهِ ومدَّدَ ومطَّ ذراعَيهِ وساقَيهِ بانتظارِ حلمٍ لطيفٍ يأبَى أنْ يراودَه. تكوَّرَ وجعلَ جسمَهُ صغيرًا لكنْ هذَا لمْ يساعِدِ البتَّةَ. حاولَ أنْ يتخيَّلَ أنَّهُ الهيميولن المحبوبُ منَ الجميعِ، حاولَ أنْ يتخيَّلَ أنَّهُ الهيميولن الَّذي لا يحبُّهُ أحدٌ. إلَّا أنَّهُ مهمَا حاولَ بقيَ مجرَّدَ هيميولن يبذلُ أفضلَ ما لديهِ منْ أجلِ الآخرينَ، مِنْ غيرِ أنْ يثمرَ ذلِكَ

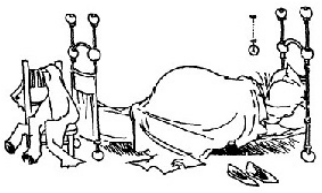

بأيِّ شيءٍ. في النِّهايَةِ نهضَ ولبسَ بنطلونَهُ.

لمْ يستسِغِ الهيميولن ارتداءَ الثِّيابِ ثمَّ خلعِهَا، منحَهُ هذَا شعورًا بأنَّ الأيَّامَ تمضِي بلَا أيِّ حدثٍ مهمٍّ. معَ ذلِكَ، لطالَمَا قضَى اليومَ بأكملِهِ وهوَ ينظِّمُ الأشياءَ ويرتِّبُهَا ويصوِّبُهَا منَ الصَّباحِ إلى اللَّيلِ! ففِي كلِّ مكانٍ منْ حولِهِ

اناسٌ يعيشونَ حياةً فوضويّةً وبلا هدفٍ، اينمَا نظرَ هناكَ شيءٌ يجبُ إنْ يصحَّحَ، وقدْ أجهدَ أصابعَهُ حتَّى العظم محاولًا جعلَهُم يرَوا كيفَ ينبغِي أنْ يعيشُوا.

هذَا كمَا لَو أنَّهم يرفضُونَ أنْ يعيشُوا حياةً طيِّبةً، فكَّر الهيميولن بحزنٍ وهوَ ينظِّفُ أسنانَهُ. تأمَّلَ صورَتَهُ إلى جانبِ قاربِهِ الَّتي التُقِطَتْ عندَمَا دُشِّنَ القارِبُ. كانَتْ صورةً جميلةً بيدَ أنَّها سبَّبَتْ لَهُ المَزيدَ مِنَ الحزنِ.

يجبُ أنْ أتعلَّمَ الإبحارَ، فكَّرَ الهيميولن. لكنَّنَي مَا حصلْتُ قطُّ علَى الوقتِ الكافِي...

فجأةً فكَّرَ الهيميولن أنَّهُ مَا فعلَ شيئًا مطلقًا سوَى نقلِ الأشياءِ من مكانٍ إلى آخرَ، أوِ التَّحدُّثِ عن أينَ ينبغِي أنْ توضَعَ، وفِي لحظَةٍ بصيرةٍ تساءَلَ عمَّا يمكِنُ أنْ يحدُثَ إذَا تركَ الأشياءَ على حالِهَا.

"لا شيءَ في الواقع - فشخصٌ آخرُ سيعتَنِي بِهَا،" قالَ الهيميولن لنفسِهِ، وأعادَ وضعَ فرشاةِ الأسنانِ في كوبِها. أصيبَ بالدَّهشةِ والقليلِ منَ الخوفِ ممَّا قالَهُ، وسرَتْ رعشةٌ في عمودِهِ الفقريِّ، كمَا يحدُثُ عندما تُدقُّ السَّاعةُ اثنتَا عشرَةَ مرَّةً في ليلَةِ رأسِ السَّنَةِ، وعلى الفورِ فكَّرَ: "يجبُ أنْ أبحِرَ..."

ثمَّ ما لبِثَ أنْ شعرَ بالغثيانِ فذهبَ وجلسَ على السَّريرِ.

الآنَ أنَا لا أفهمُ أيَّ شيءٍ، فكَّرَ الهيميولن المسكينُ الدَّؤوبُ. لأيِّ سببٍ - بحقِّ السّماءِ - قلْتُ شيئًا كذاكَ؟ هناكَ أمورٌ معيَّنةٌ يجبُ ألَّا يفكِّرَ المرءُ فيهَا، يجبُ ألَّا يتعمَّقَ المرءُ فيهَا كثيرًا. حاولَ تذكُّرَ شيءٍ لطيفٍ يفكِّرُ فيهِ ليبعدَ عنهُ كآبةَ الصَّباحِ، حاولَ وحاولَ وشيئًا شيئًا جاءَتْهُ ذكرَى بعيدةٌ ومحبَّبةٌ: تذكَّرَ الهيميولن وادي الَمومين. كانَ هذَا في فترةٍ بعيدةٍ جدًّا عندمَا ذهبَ إلى هناكَ، لكن ثمَّةَ ما تذكَّرَهُ بمنتهى الوضوحِ؛ ألَا وهوَ غرفةُ نومِ الضُّيوفِ المواجِهَةِ للجنوبِ، استرجعَ في ذهنِهِ كم كانَ منَ اللَّطيفِ أنْ يستيقظَ فيهَا صباحًا. النّافذةُ مشرَّعَةٌ، ونسيمٌ صيفيٌّ عليلٌ يداعبُ السَّتائرَ البيضاءَ، ومقبضُ النَّافذةِ يهتزُّ بلطفٍ معَ الهواءِ... والذُّبابَةُ الَّتي تطنُّ عندَ السَّقفِ. وأنْ لا عجَلَةَ هناكَ لفعلِ أيِّ شيءٍ. فهوةُ الصَّباحِ تنتظرُ في الشُّرفةِ، وكلُّ شيءٍ يرتِّبُ نفسَهُ بنفسِهِ ويمضِي وفقَ هواهُ.

كانَتْ هناكَ عائلةٌ أيضًا، بيدَ أنَّهُ لمْ يتذكَّرْ أفرادَهَا بكثيرٍ منَ الوضوحِ، كانُوا يتسكَّعونَ ذهابًا وإيابًا ويهتمُّونَ بأشغالِهم بطريقةٍ وديَّةٍ مُبهمةٍ - هم - بكلماتٍ أخرَى - عائلةٌ. في وسعِهِ أنْ يتذكَّرَ بابا مومين قليلًا أكثرَ مِنْ غيرِه، وربَّمَا مركبَ بابا مومين، ورصيفَ الميناءِ كذلكَ. لكنَّ الأفضلَ منْ ذلِكَ كلِّهِ هوَ تذكُّرُهُ ماهيَّةَ شعورِهِ حينمَا يستيقظُ في الصَّباحِ والسَّعادةُ تغمرُه.

قامَ الهيميولن، ذهبَ ليحضِرَ فرشاةَ اسنانِهِ وحشرَهَا في جيبِ بنطلونِه. ما عادَ يشعرُ بالغثيانِ، بل شعرَ كمَا لو أنَّهُ هيميولن آخرُ جديدٌ تمامًا.

لا أحد لمحَ الهيميولن وهو يغادرُ، بلا حقيبةِ سفرٍ، بلا مظلَّةٍ، وبلا أنْ يقولَ وداعًا لمطلقِ مخلوقٍ من جيرانِهِ.

لمْ يعتدِ الهيميولن على المشيَ في الرِّيفِ. تاهَ عدَّةَ مرَّاتٍ، وذلِكَ لمْ يجعلْهُ يضطرِبُ أو يغضبُ. لمْ يسبُقْ لي أنْ تهتُ من قبلُ قطُّ، فكَّرَ بشجاعَةٍ. ولمْ يسبقْ أنْ أغرقَنِي الماءُ هكذا! لوَّحَ بذراعَيهِ وشعرَ أنَّهُ مثل ذلِكَ الرَّجلِ في الأغنيةِ

الَّذِي مشَى وحدَهُ منْ بيتِهِ تحتَ المطرِ ألفَ ميلٍ، وكانَ حرًّا وجامحًا. غمرَتِ الهيميولن سعادة جمَّة! وقريبًا سيحتسِي القهوة السَّاخنَةَ في الشُّرفةِ.

على مسافةِ أقلِّ من نصفِ ميلٍ شرقَ الوادي انحدرَ نحوَ النَّهرِ، أمعنَ النَّظرَ في الماءِ القاتِمِ الجاري، وخطِرَتْ له فكرةٌ أنَّ الحياةَ مثلَ النَّهرِ؛ بعضُ النَّاسِ يبحِرونَ فيهِ برويَّةٍ، وبعضُهم بسرعةٍ، وغيرُهم يغرقونَ. سأخبِرُ بابا مومين بهذا، فكَّرَ الهيميولن بجدِّيَّةٍ. أعتقدَ أنَّها حتمًا فكرةٌ جديدةٌ. تخيَّلْ فقط، كيف تأتِي الأفكارُ اليومَ بسهولةٍ، وكلُّ شيءٍ أصبحَ في غايةِ البساطةِ. ما على المرءِ سوَى أنْ يخرجَ منَ البابِ وقبَّعتُه مائلةٌ بطريقةٍ أنيقةٍ! قدْ أنزِلُ القاربَ إلى البحرِ وأبحِرُ. يمكنُنِي أنْ أشعرَ بصلابَةِ الدَّفةِ الثَّابتَةِ تحتَ كفِّي... صلابةُ الدَّفةِ الثَّابتَةِ تحْتَ كفِّي، كرَّرَ الهيميولن، وطغَى عليهِ ابتهاجٌ قويٌّ كادَ يؤلمُه. أحكمَ شدَّ حزامِهِ حول بطنِهِ السَّمينِ، وتابعَ التَّقدُّمَ على طولِ ضفَّةِ النَّهرِ.

عندما وصلَ الهيميولن إلى الوادِي وجدَه عامرًا بماءِ المطرِ. سارَ مباشرةً إلى الحديقةِ، ووقفَ هناكَ وثمَّة تعبيرٌ حائرٌ على وجههِ. شيءٌ مَا غيرُ صحيحٍ. كلُّ ما حولَه بدَا كالسَّابقِ لكن بطريقةٍ ما ليسَ كالسَّابقِ. طارَتْ ورقةُ شجرٍ ذابلةٍ، وحطَّتْ علَى أنفِهِ.

"يا لسخافَتِي،" هتفَ الهيميولن. "هذَا ليسَ الصَّيفِ مطلقًا. نحنُ في الخريفِ!" بطريقةٍ وأخرَى فكَّرَ دائمًا في وادِي المومين خلالَ الصَّيفِ. تقدَّمَ نحوَ البيتِ، وقفَ أمامَ درجِ الشُّرفةِ، وحاولَ أنْ يغنِّي... لمْ يستطِعْ. وبالتَّالِي صاحَ: "هللوَ! أنتُم في الدَّاخلِ! ضعُوا القهوةَ علَى الموقدِ!"

لمْ يحدث شيءٌ. صاحَ الهيميولن مجدّدًا، وانتظرَ قليلا.

الآنَ سأحتالُ عليهم، قالَ لنفسِهِ. رفعَ ياقةَ قميصِهِ وأنزلَ قبّعتَهُ علَى أنفِهِ، ثمَّ عثرَ علَى مجرفةٍ قربَ برميلِ المَاءِ وحملَهَا بطَريقَةٍ متوعِّدَةٍ فوقَ رأسِهِ. ثمَّ زعقَ: "افتحُوا باسمِ القانونِ!"

وقفَ بلَا حراكٍ وانتظرَ، وهوَ يهتزُّ من شدّةِ الضَّحكِ. كانَ البيتُ ساكنًا. هطلَ المطرُ بمزيدٍ منَ القوَّةِ، تساقطَ وتساقطَ علَى الهيميولن بينَمَا وقفَ ينتظرُ، ولا شيءَ في الوادِي يمكنُ سماعُه مَا عدَا صوتُ المطرِ المنهمرِ.

6

المواجهةُ الأولَى

ما سبقَ لتوفْت أنْ ذهبَ إلَى وادي المومين، إلَّا أنَّهُ لمْ يتُه. كانَتِ الطَّريقُ إلَى هناكَ طويلةً جدًّا وساقا توفت قصيرتان. أينما مشَى صادَفَ بركًا عميقةً ومستنقَعاتٍ وأشجَارًا هائلةً سقطتْ بفعلِ القدَمِ أو نسفتْهَا العواصفُ. جذورُهَا المقتلعةُ رفَعَتْ في الهواءِ كتلًا ضخمَةً مَنَ التُّربةِ وتحتَهَا لمعَتْ بحيراتٌ منَ الماءِ القائمِ. دارَ توفْت مِن حولِهَا، دارَ من حولِ أيِّ مستنقعٍ رآهُ وأيِّ بركةِ ماءٍ، ولمْ يتُه ولا مرَّةً واحدةً. هيمَنَتْ عليهِ السَّعادَةُ، لأنَّهُ عرفَ بالضَّبطِ مَا يريدُ. والغابَةُ فاحَتْ برائحَةٍ طيِّبةٍ، بل حتَّى أطيبُ من رائحةِ قاربِ الهيميولن.

الهيميولن بنفسِهِ فاحَ برائحةِ ورق عتيقٍ وقلقٍ. وكانَ توفْت يميُّزهَا جيّدًا. ففِي ذاتِ يومٍ وقفَ الهيميولن أمامَ قاربِهِ وتنهَّدَ وهوَ يجذبُ المشمَّعَ قليلًا ثمَّ رحَلَ.

لمْ تكنِ السَّماءُ تمطرُ في هذهِ الآونةِ، لكنَّ الغابةَ التحفَتْ بالسَّديمِ، وبدَتْ في غايةِ الجمَالِ، وغدَا السَّديمُ أثخَنُ فأثخَنُ حيثُ هبطتِ التِّلالُ تُجاهَ وادي المومين، ثمَّ شيئًا فشيئًا أصبحَتِ البِركُ جداولَ، وظهرَ المزيدُ والمزيدُ منهَا. مشَى توفْت بينَ مئاتٍ منَ اليِنابيعِ والشَّلالاتِ، وكلُّهَا كانَتْ ميمّمةً وجهتَهُ نفسَها.

أصبحَ وادِي المومين قريبًا جدًّا، وأصبحَ توفْت هناكَ. ميَّزَ أشجارَ البتولا لأنَّ جذوعَها أفتحُ من جذوعِ أيِّ وادٍ آخرَ. كلُّ ما هوَ فاتحٌ كانَ أفتحَ، وكلُّ ما هو قاتمٌ كانَ أشدَّ قتامَةً. مشَى توفت بهدوءٍ قدرَ المستطاعِ وبكثيرٍ منَ البطءِ. استمعَ... تناهَى إليهِ حسُّ شخصٍ يقطعُ الخشَبَ في الوادِي. ذاكَ بابا مومين يقطعُ الخشبَ من أجلِ الشِّتاءِ. تقدَّمَ توفْت بمزيدٍ منَ الهدوءِ، باطنُ قدميهِ لا يكادُ يلامسُ الطّحالِبَ في الأرضِ. دنَا النَّهرُ منهُ، وهناكَ لاحَ الجسرُ، ويليهِ الدَّربُ. توقَّفَ بابا مومين عنْ تقطيعِ الخشبِ، ومَا عادَ يُسمع في الأجواءِ أيُّ

صوتٍ سوى خريرِ النّهرِ حيثَ تجمّعَتْ فيهِ الينابيعُ والجداولُ كلها، وتابعَتْ طريقَها نزولًا إلى البحرِ.

لقدْ وصلْتُ، فكَّرَ توفْت. عبَرَ الجسرَ ودخلَ الحديقَةَ الَّتي بدَتْ تمامًا كمَا وصفَهَا لنفسِهِ، ما كانَ ممكنًا أنْ تبدُو مختلفَةً. وقفَتِ الأشجارُ عاريَةً منَ الأوراقِ في سديمِ شهرِ تشرينَ الثّاني، وللحظَةٍ خاطفَةٍ اكتسَتْ بالخضرَةِ، ورقَعُ أشعَّةِ الشّمسِ الصّغيرَةِ رقصَتْ على العشبِ، واستطاعَ توفت أنْ يشمَّ رائحَةَ اللّيلكِ الطّيبةَ والمريحةَ.

توجَّهَ مباشرةً إلى كوخِ الحطَبِ، وهناكَ فعمَتْ أنفَهُ رائحةٌ مختلفةٌ، رائحةُ ورقٍ عتيقٍ وقلقٍ. رأى الهيميولنَ جالسًا على عتبةِ كوخِ الحطبِ وفي حضنِهِ فأسٌ. نصلُ الفأسِ مثلَّمٌ من عدَّةِ أماكنَ، بسببِ المسامَيرِ. تيبسَ توفْت في أرضِهِ. ذاكَ الهيميولن، قالَ لنفسِهِ. هذا إذًا ما يبدُو شكلُه.

رفعَ الهيميولن رأسَهُ. "هللو،" هتفَ. "ظننْتُ أنَّكَ بابا مومين. أتعرفُ إلى أينَ ذهبُوا كلُّهم، ها؟"

"لَا،" أجابَ توفْت.

"ثمَّةَ مساميرُ كثيرةٌ في أخشابِهم،" فسَّرَ الهيميولن ورفعَ الفأسَ. "ألواحُ خشبٍ قديمةٍ، وقطعٌ مدجَّجةٌ بالمساميرِ!" قالَ وهوَ يشعرُ بالارتياحِ لوجودِ شخصٍ يتحدَّثُ إليهِ. "جئْتُ إلى هُنَا لمجرَّدِ التّسليةِ،" تابعَ الهيميولنَ. "مررْتُ لرؤيَةِ أصدقاءٍ قدامَى!" ضحكَ ووضعَ الفأسَ جانبًا في كوخِ الحطبِ. "اسمعْ يا توفت،" عادَ وقالَ. "احملْ هذا إلى المطبخِ ليجفَّ. كوِّمهُ بحيثُ يواجهُ أوّلًا هذهِ النَّاحيةَ، ثمَّ تلكَ النَّاحيةَ. في هذهِ الأثناءِ سأذهبُ وأغلِي بعضَ القهوةِ. المطبخُ خلفَ البيتِ إلى اليمينِ."

"أعرِفْ،" أجابَ توفْت.

مضَى الهيميولن تُجاهَ البيتِ، وبدأَ توفْت يجمعُ الخشبَ. لاحظَ بلا مشقَّةٍ أنَّ الهيميولن ليسَ معتادًا على تقطيعِ الخشبِ، لكنَّهُ بلا شكٍّ استمتعَ بذلِكَ. والخشبُ فاحَ برائحَةٍ طيّبةٍ.

✽ ✽ ✽

حملَ الهيميولن صينيَّةَ القهوةِ إلَى صالَةِ الضُّيوفِ، ووضعَهَا علَى طاولَةِ الماهوغاني البيضاويَّةِ. "تحتسِي العائلةُ قهوتَهَا الصَّباحيَّةَ في الشُّرفةِ عادةً،" قالَ. "لكنَّ قهوةَ الضُّيوفِ تقدَّمُ في صالَةِ الضُيوفِ، خصوصًا عندما يستقبلونَ ضيفًا لمْ يسبُقْ له قطُّ أنْ جاءَ إلى هُنا."

كانَتِ الكراسِي مغطَّاةً بالمخمَلِ الأحمَرِ القانِي، وعلَى ظهرِ كلٍّ منهَا قماشٌ منَ الدَّانتِيلِ. جالَتْ عينَا توفْت بحياءٍ فِي الغرفَةِ المستديرَةِ الجميلَةِ والمُلهِمَةِ ولكِنْ أيضًا الباعثةِ على الرَّهبَةِ. لمْ يجرؤْ علَى الجلوسِ، تراءَى لَهُ أنَّ الأثاثَ فخمٌ جدًّا؛ مدفأةُ القرميدِ ترتفِعُ إلَى السَّقفِ ومطليةٌ بزخرفةٍ مخروطيَّةٍ، فيهَا صفيحةٌ كابحةٌ لِتيَّارِ الهواءِ مزيَّنَةٌ بالخرزِ وأبوابٌ نحاسيَّةٌ لمَّاعَةٌ، المنضدَةُ كانَتْ أيضًا لمَّاعَةٌ، وعلَى كلِّ دُرجٍ فيهَا مقبضٌ مُذهَّبٌ.

"حسنًا، ألَا تنوِي الجلوسَ؟" قالَ الهيميولن. فجلسَ توفْت علَى طرفِ كرسيٍّ، وحملَقَ فِي لوحَةٍ معلَّقةٍ علَى الحائطِ تحتَ المنضدَةِ، تُصوِّرُ شخصًا بشعرٍ رمادِيٍّ أشعَثَ، وعينين متقاربتَينِ وذيلٍ. والأنفُ ضخمٌ بطريقةٍ غيرِ عاديَّةٍ.

"ذاكَ سَلَفهم،" وضَّحَ الهيميولن. "هو من ذلِكَ الزَّمنِ عندَمَا كانُوا يعيشونَ خلفَ المدافِئ."

انتقَلَتْ عينَا توفْت إلَى السَّلالِمِ الَّتِي اختفَتْ في عتمَةِ أرضيَّةِ الغرفِ العلويَّةِ. سرَتْ فيهِ القشعريرةُ وقالَ: "أليسَ الجوُّ أدفأَ في المطبَخِ؟"

"أظنُّ أنَّكَ محقٌّ،" ردَّ الهيميولن. "قدْ يكونُ الجوُّ ألطفُ في المطبخِ." ثمَّ حملَ الصَّينيَّة، وغادَرَا صالةَ الضُّيوفِ المهجورةِ.

✽ ✽ ✽

طيلةَ النَّهارِ لمْ يأتِيَا علَى ذكرِ العائلَةِ الَّتِي لا أثرَ لهَا. تمشَّى الهيميولن في

الحديقَةِ، وحرَفَ أوراقَ الأشجارِ المتساقطَةِ وهوَ يدردِشُ عنْ أيِّ شيءٍ يخطرُ علَى بالِهِ، وتبعَهُ توفْت وانهمَكَ يجمعُ الأوراقَ في سلَّةٍ، ولمْ يتطقْ بكلمَةٍ إلَّا نادرًا.

في فترَةٍ مَا وقفَ الهيميولن ينظرُ في كرَةٍ بابَا مومين البلوريَّةَ الزَّرقاءَ. "زينةُ حدائِقٍ،" قالَ. "في شبابِي درجَ النَّاسُ علَى طليِهَا بالفضَّةِ،" ثمَّ واصَلَ جرفَ الأوراقِ.

لمْ ينظرْ توفْت إلى الكرةِ البلوريَّةِ. لمْ يشَأْ أنْ ينظرَ إليهَا إلَّا بعدمَا يصبحُ وحدَهُ. كانَتِ الكرةُ البلوريَّةُ نقطَةُ وادِي المومين المركزيَّةَ ولطالَمَا عكسَتْ صورةَ الَّذينَ يعيشونَ هناكَ. ولَو تبقَّى أيُّ أثرٍ منْ عائلَةِ المومين، لا بدَّ منْ أنْ تتسنَّى للمرءِ رؤيتَهُ في أعماقِ تلكَ البلوزَةِ الزَّرقاءِ.

في الغسَقِ دخلَ الهيميولن صالةَ الضُّيوفِ، وشغَّلَ ساعةَ جدِّ بابا مومين. انطلقَتْ تدقُّ مثلَ شيءٍ ممسوسٍ، بسرعةٍ وبطريقةٍ غيرِ متوازنةٍ، ثمَّ انتظمَتْ، وعادَتْ تشتغِلُ بثباتٍ وبهدوءٍ، فنبضَتْ صالةُ الضُّيوفِ بالحياةِ من جديدٍ. قصَدَ الهيميولن البارومترَ، بارومتر كبيرٌ منَ الماهوغاني مغلَّفٌ بزخرفَةٍ زينيَّةٍ، نقرَ عليهِ ورأَى أنَّهُ يشيرُ إلى كلمَةِ: "غيرُ مستقرٍّ".

بعدَ ذلِكَ ذهبَ إلَى المطبَخِ وقالَ: "الأشياءُ غدَتْ منتظمَةً الآنَ! يمكنُنَا إشعالُ نارٍ أخرَى، واحتساءُ المزيدِ منَ القهوةِ، ما رأيُكَ؟" أضاءَ مصباحَ المطبَخِ، وعثرَ في الخزانَةِ على بعضِ بسكويتِ القرفَةِ. "هذهِ زوَّادةُ سفنٍ حقيقيَّةٍ،" وضَّحَ. "يذكِّرنِي هذَا البسكويت بقاربِي. كُلْ يا توفْت! أنتَ فِي غايةِ النُّحولِ."

"شكرًا جزيلًا،" تمتَمَ توفْت.

كانَتْ معنوياتُ الهيميولن عاليةً. مالَ على طاولةِ المطبَخِ وقالَ: "قاربي متينُ البناءِ. أهناكَ مَا يمكنُ مقارنتُه بِإنزالِ قاربٍ إلى الماءِ عندَمَا يأتِي الرَّبيعُ؟"

غمَّسَ توفْت قطعةَ البسكويت في القهوةِ ولمْ يقلْ شيئًا.

"تنتظرُ وتنتظرُ،" تابعَ الهيميولن، "وفي النِّهايةِ تبحرُ وتنطلِقُ."

نظرَ توفْت إلى الهيميولن من تحْتِ غرَّتِهِ، وكلُّ ما قالَهُ أخيرًا: "نعم."

فجأةً طغَى علَى الهيميولن شعورٌ بالوحدَةِ، فالبيتُ ساكِنٌ جدًّا. وبالتَّالِي قالَ: "لا يحظَى المرءُ دائمًا بالوقْتِ ليعمَلَ ما يريدُ عملَهُ. أكنْتَ تعرفُهم؟"

"نعمْ، أعرفُ ماما مومين،" أجابَ توفْت. "بقيَّةُ العائلةِ ضبابيَّةٌ قليلًا في ذهنِي."

"هم كذلكَ في ذهنِي أيضًا،" هتفَ الهيميولن وقدْ شعرَ بالارتياحِ لأنَّ توفْت قالَ شيئًا أخيرًا. "لمْ أتأمَّلْهم قطُّ عن قربٍ كثيرًا، كانُوا هناكَ فقطْ، كمَا تعلَمُ..." بحثَ عن الكلماتِ، وأردفَ بتردُّدٍ: "كانُوا مثلَ أشياءَ تراهَا دائمًا حاضرةً، إذَا فهمْتَ مَا أعنِي... كالأشجارِ، هَا؟... أو... أشياءَ أخرَى."

انكمشَ توفْت على نفسِه ثانيةً. بعدَ برهةٍ نهضَ الهيميولن وقالَ: "ربَّمَا حانَ وقتُ الذَّهابِ إلى الفراشِ. غدًا يومٌ آخرُ." بدَا واقعًا في الحيرةِ، فقدْ تلاشَتْ صورَةُ الصَّيفِ الجميلَةُ وغرفَةُ نومِ الصُّيوفِ المواجهَةُ للجنوبِ، والآنَ لا يَرى إلَّا الدَّرجَ المؤديَ إلَى الطَّابقِ العلويِّ المظلِمِ بغرفِهِ الشَّاغرَةِ. وهكذَا قرَّرَ أنْ ينامَ في المطبخِ.

"سأخرجُ لفترةٍ،" تمتَمَ توفْت.

أغلقَ البابَ خلفَهُ، ووقفَ على درجِ المطبخِ. كانَتِ الدُّنيا حالكةَ السَّوادِ في الخارجِ. تربَّثَ إلَى أنْ ألِفَتْ عينَاهُ العتمَةَ، ثمَّ مشَى بتؤدَةٍ في الحديقَةِ. أمامَهُ لاحَ شيءٌ أزرقُ ومشعٌّ وسطَ الظَّلامِ. كانَ قدْ وصلَ إلَى الكرَةِ البلوريَّةِ. نظرَ فيهَا مباشرَةً، كانَتْ بعمقِ البحرِ، ومُشبعةً بأمواجٍ منتفخةٍ هائلَةٍ. أحدَّ توفْت النَّظرَ أعمقَ فأعمقَ في الكرَةِ، واستطاعَ أنْ يرَى نقطَةً باهتَةً منَ الضَّوءِ. شعَّتْ واختفَتْ، شعَّتْ واختفَتْ، بتناوبٍ منتظِمٍ، مثلَ أضواءِ المنارةِ.

إنَّهم على مسافةٍ بعيدةٍ جدًّا، فكَّرَ توفْت. شعرَ بالبردِ يزحفُ على ساقَيه، ومعَ ذلكَ بقِيَ حيثُ هوَ يحملقُ في الضَّوءِ الَّذي ظهرَ وغابَ. باهتٌ جدًّا بحيثُ إنَّ المرءَ لا يكادُ يميِّزُهُ. شعرَ كمَا لو أنَّهُ قدْ تعرَّضَ للخداعِ بطريقَةٍ مَا.

❀ ❀ ❀

وقفَ الهيميولن في المطبخِ يحملُ مصباحًا بيدِهِ، ويفكِّرُ كم أنَّهَا مهمَةٌ مستحيلةٌ وغيرُ سارَّةٍ البحثُ عن مفرشٍ، والعثورُ على مكانٍ لوضعِهِ، ثمَّ الالتفاتُ إلى نزعِ الثِّيابِ، والاعترافُ لنفسِهِ بأنَّ نهارًا آخرَ قدْ أصبحَ ليلةً أخرَى. كيفَ انتهَتِ الأمورُ إلى مَا انتهَتْ إليهِ، فكَّرَ مذهولًا تمامًا. لقدْ شعرْتُ بسعادَةٍ عظيمَةٍ طوالَ اليومِ. ما كانَ ذاكَ الَّذِي بدَا لِي في منتَهَى البساطَةِ؟

بينمَا وقفَ الهيميولن هناكَ يتساءَلُ، فُتحَ بابَ الشُّرفَةِ، ودخلَ أحدُهم إلى صالَةِ الضُّيوفِ، وتعثَّرَ بكرسِيٍّ.

"ماذَا تفعلُ هناكَ؟" انبرَى الهيميولن يسألُ.

لا أحد أجابَ. رفعَ الهيميولن المصباحَ وصاحَ: "مَنْ هناكَ؟!"

عندئذٍ جاءَهُ صوتٌ مغرِقٌ في القدَمِ يقولُ بطريقةٍ غامضةٍ: "هذَا ما لَا أنوي إطلاعَكَ عليهِ!"

7

الجدُّ غرمبل

كانَ كبيرَ السِّنِّ بشكلٍ فظيع، وينسَى الأشياءَ بسهولةٍ متناهيةٍ. في صبَاحِ يومٍ معتمٍ منْ أيَّامِ الخريفِ استيقظ ناسيًا ما اسمُهُ. منَ المحزنِ قليلًا أنْ ينسَى المرءُ أسماءَ النَّاسِ الآخرين، لكنْ منَ اللَّطيفِ أنْ يكونَ المرءُ قادرًا على نسيانِ اسمِهِ تمامًا.

لمْ يعبَأْ بالنُّهوضِ، وطوالَ اليومِ سمحَ للصُّورِ والأفكَارِ أنْ تأتِيَ وتذهبَ في ذهنِهِ كمَا يحلُو لهَا؛ غفَا أحيانًا واستيقظَ ثانيةً ومَا زالَ لا يتذكَّرُ مَنْ هوَ. كانَ يومًا مسالمًا ومحفِّزًا كثيرًا.

قبيلَ المساءِ حاولَ اختراعَ اسمٍ لهُ حتَّى يكونَ قادرًا على النُّهوضِ. كرمبي - غمغوم؟ غريندل - فمبل؟ الجدُّ غرمبول؟ غرامبل - فيمبول؟ مامبول...؟"

هناكَ عدَّةُ أشخاصٍ يتعرَّفُ المرءُ إليهم وفِي الحالِ ينسَى أسماءَهم. قالَ لنفسه. يأتونَ دائمًا أيَّامَ الأحدِ. يصيحونَ بأسئلَةٍ مهذَّبةٍ لأنَّهم لا يفقهون أبدًا أنَّ المرءَ ليسَ مصابًا بالصَّممِ. يحاولونَ أنْ يتحدَّثُوا ببساطةٍ جمَّةٍ حتَّى يفهمَ مَا يرمونَ إليهِ. يقولونَ تصبحُ على خيرٍ، ويعودونَ إلى بيوتِهم ويلهُونَ ويرقُصونَ ويغنُّونَ إلى الصَّباحِ التَّالِي. وكلُّهم ينتمونَ إلى المرءِ بصلةٍ قُربى.

"أنَا الجدُّ غرمبل،" همسَ لنفسِهِ بجدِّيَّةٍ. "سأنهضُ الآنَ وأنسَى عوائِلَ العالمِ كلِّها."

جلسَ الجدُّ غرمبل قربَ نافذَةِ بيتِهِ معظمَ اللَّيلةِ وحدَّقَ في الظَّلامِ، كانَ مفعمًا بالتَّوقعاتِ. مرَّ شخصٌ مَا أمامَ بيتِهِ، ومضَى مباشرةً إلَى الغابَةِ. في الجانِبِ

الآخرِ منَ الخليجِ انعكسَتْ صورَة نافذةٍ مضيئةٍ في المَاءِ. ربّمَا هناكَ حفلة مَا تجري، وربَّمَا لَا. انقضَتِ اللَّيلةُ بهدوءٍ بينمَا لبثَ الجدُّ غرمبل ينتظرُ ليقرِّرَ مَا يريدُ أنْ يفعلهُ.

جاءَتْ لحظةٌ في عتمَةِ الفجرِ المبكرِ عرفَ خلالَها أنَّهُ أرادَ الذَّهابَ إلى وادٍ سبقَ أنْ قصدَهُ مَرَّةً منذُ زمنٍ طَويلٍ جدًّا. وهناكَ ثَمَّةَ احتمالٌ مَا فِي أنْ يكونَ قدْ سمعَ عن ذلِكَ الوادِي فحسبُ، أو ربَّمَا قرأَ عنهُ، بيدَ أنَّ هذَا فِي الواقعِ لمْ يشكِّلْ أيَّ فرقٍ. الأهمُّ مِنْ أيِّ شيءٍ كانَ الغديرُ الَّذي يجري خلالَ الوادِي، أم تراهُ كانَ نهرًا؟ إنَّمَا حتمًا ليسَ جدولًا. قرَّرَ الجدُّ غرمبل أنَّهُ كانَ غديرًا، لأنَّهُ أحبَّ الغُدرانَ أكثرَ بكثيرٍ منَ الجداولِ. غديرٌ صافٍ جارٍ، وهوَ يجلسُ على الجسرِ ويدلِّي ساقيهِ بينمَا يراقبُ السَّمَكَ الصَّغيرَ يسبحُ بعضُهُ حولَ بعضٍ. لا أحدٌ ليسألَهُ مَا إذَا قدْ حانَ وقتُ ذهابه إلى النَّومِ. لا أحدَ ليسألَهُ عنْ أحوالِهِ، ثمَّ يشرعُ في التَّحدُّثِ عن أمورٍ أخرَى منْ غيرِ أنْ يمنحَهُ الوقتَ ليكتشفَ أهوَ بصحَّةٍ جيِّدةٍ أو لَا. يوجدُ بيتٌ مَا هناكَ أيضًا، حيثُ يستطيعُ المرءُ أنْ يمرحَ ويغنِّي فيهِ طوالَ اللَّيلِ، والجدُّ غرمبل سيكونُ آخرَ منْ يغادرَ الحفلةَ عندَ الفجرِ.

لمْ يرحلِ الجدُّ غرمبل فورًا، فهوَ يعرفُ أهميَّةَ تأجيلِ مَا يتوقُ إليهِ المرءُ، ويعرفُ أيضًا أنَّ رحلةً نحوَ المجهولِ يجبُ أنْ يستعدَّ لهَا بشكلٍ سليمٍ.

على مدَى عدَّةِ أيَّامٍ تجوَّلَ في التِّلالِ المحيطَةِ بالخليجِ الممتَدِّ المعتمِ، خليجٌ يغوصُ أعمقَ فأعمقَ في عالمِ النِّسيانِ، وبدأَ يشعرُ أنَّ الوادِي يزدادُ قربًا أكثرَ فأكثرَ.

آخرُ أوراقِ الأشجارِ الحمراءِ والصَّفراءِ سقطَتْ وتجمَّعَتْ حولَ قدمَيهِ بينمَا مشَى (مَا زالَتْ ساقَا الجدِّ غرمبل في حالةٍ جيِّدةٍ جدًّا) وما بينَ حينٍ وآخرَ توقَّفَ والتقطَ ورقةً بعضَاهُ وقالَ لنفسِهِ: "هذهِ ورقةُ شجرةِ قيقب... لنْ أنسَى هذَا." عرِفَ تمامَ المعرفةِ مَا يريدُ أنْ يتذكَّرَهُ.

كانَ مدهشًا كمْ نجحَ في النِّسيانِ خلالَ تلكَ الأيَّامِ القلائلِ. في كلِّ صباحٍ ينهضُ بذلِكَ التَّوقُّعِ المكتومِ، وعلَى الفورِ يبدأُ في مهمَّةِ النِّسيانِ كَي يجعلَ الوادِي أكثرَ قربًا منهُ. لا أحدَ يزعجُهُ، وَلَا أحدَ يخبرُهُ منْ يكونُ.

عثرَ الجدُّ غرمبل على سلَّةٍ تحتَ سريرِهِ، ووضعَ فيهَا أدويتَهُ وقنينةَ البراندي الصَّغيرةَ منْ أجلِ معدَتِهِ. أعدَّ ستةَ شطائرَ وأخرجَ مظلَّتَهُ. كانَ يستعدُّ للفرارِ، كانَ يهربُ منَ البيتِ.

على مرِّ السِّنينَ تجمَّعَتْ أغراضٌ كثيرةٌ علَى أرضيَّةِ غرفَتِهِ. هناكَ أشياءُ كثيرةٌ جدًّا لا يبالِي المرءُ أبدًا بالتقاطِهَا، وأسبابٌ كثيرةٌ جدًّا كَي لا يلتقطَهَا. هذهِ الأغراضُ تبعثَرَتْ فِي شتَّى أرجاءِ المكانِ مثلَ جزرٍ صغيرةٍ متعدِّدةٍ. أرخبيلٌ

منْ اغراضٍ مفقودَةٍ وغيرِ ضروريّةٍ منْ مَنطلقِ العادَةِ خطا فوقَهَا وحواليها، فقَدْ منحَتْ تحرُّكُهُ اليوميَّ في غرفتِه إثارةً معيَّنةً، وفي الوقتِ نفسِهِ ولَّدَتْ لديهِ شعورًا بالتّكرارِ والدَّيمومَةِ. قرَّرَ الجدُّ غرمبل أنَّهَا مَا عادَتْ ضروريَّةً. أخذَ مكنسَةً وجعلَ عاصفَةً تجتاحُ الغرفَةَ. أشياءُ شتَّى؛ فتاتُ طعامٍ، نعالٌ مفقودةٌ، بقايَا زغبٍ، حبوبٌ تدحرجَتْ إلى الزَّوايا، قوائمُ تسوُّقٍ منسيَّةٌ، ملاعقُ وشوكاتٌ وأزرارٌ ورسائلُ غيرُ مفتوحةٍ، كنَسَهَا وجمعَهَا في كومَةٍ. ومنْ كومَتِهِ الهائلَةِ انتقَى ستَّ نظّاراتٍ ووضعَهَا في سلَّتِهِ: "أنَا سأنظرُ إلى أشياءَ في غايَةِ الجِدَّةِ،" فكّرَ بينَه وبينَ نفسِهِ.

وهكذا، أصبحَ الوادِي قريبًا جدًّا منه، عندَ المنعطَفِ بالضَّبطِ، وسيطرَ عليهِ شعورٌ بأنَّ يومَ الأحدِ لمْ يحلَّ بعدُ.

غادرَ الجدُّ غرمبل بيتَهُ يومَ الجمعَةِ أو يومَ السَّبتِ، وبطبيعةِ الحالِ لمْ يستطعِ المغادرَةَ منْ غيرِ أنْ يكتبَ ملاحظَةَ وداعٍ. "أنَا راحِلٌ الآنَ وأنَا بصحةٍ جيِّدَةٍ،" كتَبَ. "لقَدْ سمعْتُ كلَّ مَا قلتمُوهُ لِي علَى مدَى مئةِ سنةٍ لأنَّنِي لسْتُ مصابًا بالصَّممِ مطلقًا، وأعرفُ أنَّكم تقيمونَ الحفلاتِ سرًّا طوالَ الوقتِ." لا توقيع.

بعدئذٍ، ارتدَى الجدُّ غرمبل منْذله ولفافَتِي ساقَيهِ، حملَ سلَّتَهُ الصَّغيرَةَ، فتحَ بابَ بيتِهِ وأغلقَهُ خلفَهُ، مغلقًا بذلكَ علَى مئةِ سنةٍ. يمَّمَ جنوبًا نحوَ الوادِي السَّعيدِ متسلِّحًا بتصميمِهِ واسمِهِ الجديدِ، ولا أحدَ في الخليجِ عرفَ بأنَّهُ قدْ رحلَ. أوراقُ الأشجارِ الحمراءُ والصَّفراءُ رقصَتْ حولَ رأسِهِ، ومنْ بعيدٍ في التِّلالِ انهمرَ مطرٌ خريفيٌّ آخرُ ليجرفَ بقايَا كلِّ الأشياءِ الَّتي لا يريدُ أنْ يتذكَّرَها.

8

سيِّدةٌ في حالَةِ ارتباكٍ

تأجَّلَتْ زيارةُ الفيليجونكة إلى وادي المومين فترةً لأنَّهَا لمْ تتوصَّلْ إلى قرارٍ بخصوصِ كُراتِ النِّفتالين. وضعُ كُرَاتِ النِّفتالين في كلِّ شيءٍ عمليَّةٌ كبيرةٌ، معَ التَّهويةِ والتَّنظيفِ ومَا إلى ذلكَ، بغضِّ النَّظرِ عنِ الخزاناتِ الَّتي يجبُ فركَهَا بالصُّودا والصَّابون. لكنْ كلَّمَا لمسَتِ الفيليجونكة مكنسةً أوْ منفضةً أصابَهَا الدُّوارُ، واعتمَلَ في معدتِهَا شعورٌ بالغثيانِ منَ الخوفِ وصعَدَ ليلتصقَ بحنجرتِهَا. عجزَتْ عنِ القيامِ بأيِّ تنظيفٍ، لمْ يكنْ ذلِكَ جيِّدًا. ليسَ بعدَ قضيَّةِ تنظيفِ النَّافذةِ تلكَ.

هذَا لنْ يجديَ، فكَّرَتِ الفيليجونكة المسكينَةُ. العثُّ سيقضِي علَى كلِّ ما أمتلكُهُ!

لمْ تكنْ لديهَا أيُّ فكرةٍ كَمْ ستستغرقُ زيارتُهَا. إذَا لمْ تَستمتعْ بذلِكَ قدْ تنقَضِي الزِّيارةُ في يومَين. وإذا استمتعَتْ قدْ تدومُ الزِّيارةُ شهرًا. وفي حالِ دامَتْ شهرًا، ستجدُ عندَمَا تعودُ إلى بيتِهَا أنَّ العثَّ وبقَّ السَّجادِ قدْ غزَتْ ثيابَهَا. برعبٍ تخيَّلَتْ فِكاكَ تلكَ الحشراتِ تلتهِمُ ملابسَهَا وسجاجيدَهَا، وتخيَّلَتِ ابتهاجَ تلك الحشرات الشَّريرَ بعدَ عثورِهَا علَى وشاحِ الفيليجونكة الرِّيشيِّ!

في النِّهايةِ سيطرَ علَى الفيليجونكة تعبٌ شديدٌ، وقهرٌ لعجزِها عنِ التَّوصُّلِ إلى قرارٍ، فألقَتِ الوشاحَ الرِّيشيَّ حولَ رقبتِهَا كيفمَا اتَّفقَ، أغلَقَتْ بابَ البيتِ وانطلقَتْ.

لمْ يكنْ وادي المومين بعيدًا عنْ بيتِهَا، بَيدَ أنَّهَا عندمَا وصلَتْ بدَا لَهَا أنَّ حقيبةَ السَّفرِ ثقيلةٌ كالرَّصاصِ، كمَا أنَّ حزمتَهَا آلمَتْ قدمَيهَا. ارتقَتْ إلى الشُّرفةِ وقرعَتِ البَابَ، انتظرَتْ هنيهَةً، ثمَّ قصدَتْ صالَةَ الضُّيوفِ.

لاحظتِ الفيليجونكة فورًا أنْ لا أحد قامَ بالتّنظيفِ هناكَ منذ وقتٍ طويلٍ. نزعَتْ أحدَ قفّازيهَا القطنيَّين، ومرَّرَتْ أصابعَهَا على رفِّ المدفأةِ، مخلِّفةً خطًّا أبيضَ في الغبارِ الرَّماديِّ. «لا يمكنُ أنْ يكونَ هذا حقيقيًّا،» همسَتْ، وسرَتْ فيها قشعريرةُ ارتباكٍ. «عجبًا، الامتناعُ عنِ التَّنظيفِ، وبمحضِ إرادَتِكَ أيضًا...»

وضعَتْ حقيبةَ السَّفرِ أرضًا، ومضَتْ إلى النَّافذَةِ. كانَتْ قذرةً كذلِكَ، وعلَى طولِ لوحِ الزُّجاجِ ترَكَ المطرُ خطوطًا مُغمَّةً طويلةً. فقط عندمَا لاحظتِ الفيليجونكة أنَّ السَّتائرَ قدْ أُنزلَتْ أدركَتْ أنَّ العائلةَ ليسَتْ في البيتِ مطلقًا. رأتْ أنَّ الثُّريَّا قدْ لُفَّتْ بالشَّاشِ. وبلا سابقِ إنذارٍ غلَّفتْهَا رائحةُ البيتِ المهجورِ الباردةُ، وسيطرَ عليهَا شعورٌ بأنَّها قدْ خُدعَتْ أيمَّا خديعةٍ. فتحَتْ حقيبَةَ السَّفرِ وأخرجَتِ الزَّهريَّةَ الخزفيَّةَ، الهديَّةَ لماما مومين، ووضعَتْهَا على الطَّاولَةِ. فوقفَتِ الزَّهريَّةُ هناكَ مثلَ عتابٍ صامتٍ. كانَ الهدوءُ المخيفُ يسودُ البيتَ بأكملِهِ.

فجأةً اندفعَتِ الفيليجونكة إلى الطَّابقِ العلويِّ. كانَ الجوُّ هناكَ أبردَ، ذلِكَ

النَّوعُ منَ البردِ الَّذي تشعرُ بهِ في البيتِ الصَّيفيِّ الَّذي يُغلقُ شتاءً. فتحَتْ بابًا تلو بابٍ، كانَتِ الغرَفُ شاغرةً في شبهِ العتمةِ معَ السَّتائرِ المسدلَةِ. أصبحَتْ أكثرَ فأكثرَ اضطرابًا وبدأَتْ تفتحُ الخزاناتِ، حاولَتْ فتحَ خزانَةِ الثِّيابِ بيدَ أنَّهَا وجدَتْهَا مقفلةً، وفجأةً أصابَتْهَا لوثةُ جنونٍ، وراحَتْ تضرُبُ بابَ الخزانَةِ بكفَّيهَا، ثمَّ هرعَتْ إلى حجرَةِ التَّخزينِ وفتحَتْ بابَهَا.

هناكَ في الدَّاخلِ قبعَ توفْت يحدِّقُ فيهَا. في حضنِهِ كتابٌ ضخمٌ، ولاحَ عليهِ الخوفُ.

«أينَ هم؟ أينَ هم؟» انفجرَتِ الفيليجونكة.

أسقطَ توفْت كتابَهُ وزحفَ إلى الحائطِ، لكنْ حالمَا التقطَ أنفُه رائحةَ هذهِ الفيليجونكة الغريبةِ الثَّائرةِ عرف أنَّهَا ليسَتْ خطرَةً. فاحَتْ منهَا رائحةُ

الخوفِ، وبالتّالِي قالَ: «لا ادرِي.»

«لكِنَّنِي جئتُ لزيارتِهِمْ!» صاحَتِ الفيليجونكة. «معِي هديَّةٌ لهم؛ زهريَّةٌ جميلةٌ جدًّا. لا يمكنُ أنْ يكونُوا قدِ انتقلوا هكذا بلا أنْ يقولوا كلمةً!»

اكتفَى توفْت بهزِّ رأسِهِ، واستمرَّ يحدِّقُ فيهَا. ثمَّ ما لبثَتْ أنْ غادرَتِ الفيليجونكة وأغلقَتِ البابَ وراءَهَا.

زحفَ توفْت إلى شبكَةِ بركةٍ وجدَهَا علَى الأرضيَّةِ، جهَّزَ فيها تجويفًا طريًّا ومريحًا لنفسِهِ، وتابعَ القراءَةَ. كانَ كتابًا ضخمًا جدًّا لا بدايةَ لهُ ولا نهايَةَ، وصفحاتُهُ باهتةٌ والجرذانُ قرضَتْ أطرافَهَا. لمْ يعتدْ توفت علَى القراءةِ، واستغرقَ وقتًا جيِّدًا في تهجئَةِ كلماتِ كلِّ سطرٍ. طوالَ الوقتِ حداهُ الأملُ أنْ يشرحَ لهُ الكتابُ لماذَا غادرَتِ العائِلَةُ وأينَ هم أفرادُهَا. إلَّا أنَّ الكتابَ دارَ حولَ أمورٍ مختلفةٍ كلَّ الاختلافِ، وحوشٍ عجيبةٍ وطبيعةٍ مظلمةٍ، ولا شيءَ له اسمٌ استطاعَ تمييزَهُ. لمْ يسبقْ لتوفت أنْ عرفَ أنَّ في أسفلِ أعماقِ المحيطِ عاشَتِ الشّعوعيَّاتُ وآخرُ فصيلةٍ منَ النُّميَّاتِ. أحدُ النّميَّاتِ لمْ يكنْ مثلَ بقيَّةِ أقاربِهِ، كانَ هناكَ شيءٌ فسفوريٌّ فيهِ، وشيئًا فشيئًا أصبحَ لا يشبهُ إلّا نفسَهُ. واضحٌ أنَّهُ كانَ صغيرًا جدًّا جدًّا ويصبحُ أصغرَ بكثيرٍ عندمَا يخافُ.

«منَ المستحيلِ بالنِّسبَةِ إلينَا أنْ نبديَ دهشَةً كافيةً،» قرأَ توفْت، «بخصوصِ هذَا الكائنِ النَّادرِ المغايرِ لمجموعَةِ البروتوزا أوِ الكائناتِ الأوَّليَّةِ. سببُ تطورِهِ الغريبِ التِّلقائيّ يفلُتُ منْ كافَّةِ الاحتمالاتِ القائمَةِ علَى أسسٍ سليمَةٍ، لكنْ لدينَا أسبَابٌ موجبةٌ لنخمِّنَ بأنَّ شحنةً كهربائيَّةً كانَتْ ضرورةَ حياةٍ حاسمة لَه. ظهورُ العواصِفِ الكهربائيَّةِ في تلكَ الفترَةِ توافرَ بغزارَةٍ، ارتدادُ سلاسلِ الجبالِ بعدَ الجليديِّ الذي سبقَ وصفُهُ خضعَ إلى اضطراباتٍ جويَّةٍ منْ هذهِ العواصفِ الكهربائيَّةِ العنيفَةِ، وهذا أدَّى إلى شحنِ المحيطِ المجاورِ بالكهرباءِ.»

تركَ توفْت الكتابَ يسقطُ. لمْ يفهمْ حقًّا ما يدورُ حولَهُ، والجملُ طويلةٌ جدًّا. بيدَ أنَّهُ رأى أنَّ جميعَ الكلماتِ الغريبَةِ جميلةٌ، وهوَ لمْ يحدثْ لَهُ قطُّ منْ قبلُ أنِ امتلكَ كتابًا يخصُّهُ. سارعَ إلى إخفاءِ الكتابِ تحتَ شبكَةِ البركةِ، واستلقَى بلا حراكٍ. التقطَتْ عينَاهُ وطواطًا صغيرًا متدليًا منْ كوَّةِ السَّقيفَةِ المكسورَةِ، ونَائمًا رأسًا علَى عقبٍ.

سمعَ صوتَ الفيليجونكة المُدوِّي في الحديقةِ، لقدْ وجدَتِ الهيميولن.

اجتاحَ توفْت نعاسٌ شديدٌ. حاولَ أنْ يصفَ لنفسِهِ العائلةَ السَّعيدَةَ ولمْ يفلحْ. عندئذٍ استعاضَ عنْ ذلِكَ بتسليَةِ نفسِهِ باستعراضِ أوصَافِ النِّمِّي الصَّغيرِ المنفردِ الّذي فيهِ شيءٌ منَ الفوسفورِ ويهوَى الكهرباءَ.

9

الميمبل

كانَتِ الميمبلُ تمشي في الغابَةِ وهِيَ تفكِّرُ: «لطيفٌ أنْ يكونَ المرءُ ميمبل. أشعرُ أنَّنِي في منتَهَى الرَّوعةِ منْ أعلَى رأسِي إلى أخمَصِ قدمِي.»

أحبَّتْ ساقَيها الطَّويلتَينِ وجزمَتَها الحمراءَ. عندَ قمَّةِ رأسِهَا تستقرُّ تسريحةُ شعرِ الميمبل المتغطرسَةُ؛ شعرٌ لمَّاعٌ ومشدودٌ وبحمرةٍ ناعمَةٍ مائلَةٍ إلى الصُّفرَةِ مثلَ لونِ البصَلِ. مرَّتْ بالمستنقعَاتِ، وفوقَ التِّلالِ وخلالَ التَّجاويفِ العميقَةِ الَّتِي حوَّلَهَا المطرُ إلى طبيعَةٍ تحتَ الماءِ، مشَتْ بسرعَةٍ، وأحيانًا انطلقَتْ تعدُو لمجرَّدِ الإحساسِ كم هيَ خفيفةٌ ونحيلةٌ.

تملَّكَتْهَا رغبةٌ شديدةٌ في الذَّهابِ لرؤيَةِ أختِهَا ماي الصَّغيرةِ الَّتِي تبنَّتهَا عائلَةُ المومين منذُ بعضِ الوقتِ. تخيَّلَتْ أنَّ ماي الصَّغيرةَ مَا زَالَتْ كعهدِهَا دائمًا ذاتَ طَبيعةٍ عمليَّةٍ ومزاجٍ سيِّئٍ، وأنَّهَا مَا زَالَتْ قادرَةً على حشرِ نفسِهَا في سلَّةِ خياطَةٍ.

عندمَا وصلَتِ الميمبل شاهدَتِ الجدَّ غرمبل جالسًا على الجسرِ، يصطادُ السَّمكَ بأداةٍ منزليَّةِ الصُّنعِ. كَانَ يرتدِي مِبذلَهُ، ولفافَتِي ساقَيهِ وقبَّعتَهُ ويحملُ مظلَّةً. لمْ ترَهُ ميمبل قطُّ بهذَا القربِ؛ فتفحَّصَتْهُ بعنايَةٍ وبفضولٍ مؤكَّدٍ. كانَ ضئيلَ البُنيةِ بطريقَةٍ مدهشَةٍ.

«أعرفُ منْ أنتِ جيِّدًا،» بادرَهَا بالقولِ. «وأَنَا الجدُّ غرمبل ولا أحد آخرُ! وأعرفُ أنَّكم تقيمونَ حفلاتٍ سرِّيَّةٍ لأنَّنِي أستطيعُ رؤيَةَ الأضواءِ في نوافذِكُم طوالَ اللَّيلِ!»

«إذا صدّقتَ هذا، فستصدَق ايَّ شيءٍ،» اجابَتِ الميمبل بِلا اكتراثٍ. «ارايْتَ ماي الصَّغيرةَ؟»

جذبَ الجدُّ غرمبل أداةَ الصَّيدِ خارجَ الماءِ، كانَتْ فارغَةً.

«أينَ مَاي الصَّغيرةُ؟» كرَّرَتِ الميمبل.

«لا تصيحي!» زعقَ الجدُّ غرمبل. «ليسَتْ هناكَ أيُّ علَّةٍ بأذنِي، وقدْ يفزعُ السَّمكُ ويسبَحُ بعيدًا!»

«رحلَ السَّمكُ منذُ وقتٍ طويل،» قالَتِ الميمبل وفرَّتْ مبتعدَةً. عطسَ الجدُّ غرمبل وألحفَ في الاحتماءِ بمظلَّتِهِ. لطالمَا كانَ غديرُهُ عامرًا بالسَّمكِ. أمعنَ النَّظرَ في الماءِ البُنيِّ الجاري تحْتَ الجسرِ بكتلٍ منتفخَةٍ متلألئَةٍ، حامِلًا معَهُ آلافًا منْ أشياءَ شبْهِ طافيَةٍ وشبهِ غارقَةٍ كانَتْ تمرُّ بسرعَةٍ وتختَفِي، تمرُّ وتختَفِي... بدأَتْ عينَا الجدِّ غرمبل تؤلمَانِهِ فأطبَقهمَا لتقدِرَا علَى رؤيةِ غديرِهِ المعهودِ ثانيةً. غديرٌ صافٍ بقاعٍ رمليٍّ ومكتظٌّ بالسَّمكِ الزَّاهي المندفعِ...

ثمَّةَ شيءٌ خطَأ هُنَا، فكَّرَ بقلقٍ، الجسرُ عَلَى ما يُرام، وهوَ الجسرُ الصَّحيحُ. لعلِّي أنَا الَّذي أصبحْتُ مختلفًا... ثمَّ مَا لبثَتْ أفكارُهُ أن انجرفَتْ بعيدًا وغفَا.

✽ ✽ ✽

جلسَتِ الفيليجونكة في الشُّرفَةِ والبطانيَّاتُ تغطِّي ساقَيهَا. بدَتْ كمَا لو أنَّها تمتَلِكُ الوادِي بأسرِهِ، إلَّا أنَّهَا ليسَتْ مسرورةً كثيرًا بذلِكَ.

«هللو،» حيَّتْهَا الميمبل الَّتِي أدركت فورًا أنَّ البيتَ خالٍ من أهلِهِ.

«صباحَ الخيرِ،» اجابَتِ الفيليجونكة، بذلِكَ التّرحيبِ البارِدِ الذي تستخدمُهُ معَ جماعَةِ الميمبِل. «رحلُوا كلُّهم... بِلا أيِّ كلمَةٍ. ويجبُ أنْ يَشعرَ المرءُ بالامتنَانِ لأنَّ البَابَ لمْ يُقفلْ!»

«هم لا يقفلُونَ أبوابَهم أبدًا،» وضَّحَتْ الميمبل.

«بل يفعلونَ،» همسَتِ الفيليجونكة، ومالَتْ تسارِرُ الميمبل. «لقَدْ أقفلُوا أبوابَهم. خزانةُ الثِّيابِ في الأعلَى مقفلَةٌ! طبعًا هناكَ يحتفظُونَ بأغراضِهم الثّمينَةِ، أغراضٌ يخشَونَ أنْ يفقدُوهَا!»

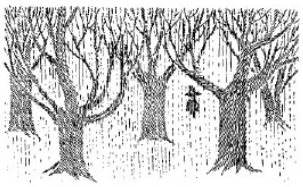

تأمَّلَتِ الميمبِل الفيليجونكة، تأمَّلَتْ عينَيها القلقتَينِ، وشعرَهَا بتجعيداتِهِ المحكَمَةِ وكلُّ خصلةٍ منه مثبَّتةٌ بدبُّوسٍ، وشاحَ رقبتِهَا الرِّيشيَّ. نعم، لمْ تتغيرِ الفيليجونكة. أقبلَ الهيميولن من ممرِّ الحديقةِ، كانَ يجرفُ أوراقَ الأشجارِ ويجمعُهَا في سلَّةٍ.

«هللو» حيَّاهَا الهيميولن. «أرَى أنَّكِ هُنَا أيضًا، أليسَ كذلِكَ؟»

ومَنْ ذَاكَ؟» استفسرَتْ ميمبل

«أحضرْتُ معِي هديَّةً،» قالَتِ الفيليجونكة من ورائِهَا.

«هذَا توفْت،» وضَّحَ الهيميولن، «إنَّهُ يساعدُنِي قليلًا في الحديقةِ.»

«زهريَّةٌ خزفيَّةٌ جميلةٌ جدًّا لمامَا مومين!» تابعَتِ الفيليجونكة بصوتٍ أجشٍّ.

«حقًّا،» قالَتْ ميمبل. «وأنتَ تجرفُ الأوراقَ.»

«أنا أحاولُ جعلَ المكانِ لطيفًا،» أضافَ الهيميولن.

فجاة زعقتِ الفيليجونكة: «يجبُ الا تلمِسَ الأوراقَ القديمَة! إنهَا خطِرة! ممتلئةٌ بالعفنِ!» اندفعَتْ إلى مقدمَةِ الشُّرفَةِ، وجرجرَتِ البطانيَّاتِ خلفَهَا. «بكتيريا!» صرَخَتْ. «ديدانٌ! يرقاتٌ! زَواحفٌ مخيفةٌ! لا تلمسْهَا!»

إستمرَّ الهيميولن يحرفُ. كشَّرَ وجهَهُ البريءَ العنيدَ، وكرَّرَ بصوتٍ عالٍ: «أنا أجمِّلُ المكانَ من أجلِ بابا مومين.»

«أعرفُ عن أيِّ شيءٍ أتحدَّثُ،» واجهته الفيليجونكة بنبرَةِ تحذيرٍ، واقتربَتْ منه. راقبَتْهُمَا الميمبلُ. «أوراقٌ قديمةٌ؟» فكَّرَتْ. «النَّاسُ غريبُو الأطوارِ..» ثمَّ دخلَتِ البيتَ وصعدَتْ إلى الغرفَةِ العلويَّةِ. كانَتْ باردَةً جدًّا. غرفَةُ نومِ الضُّيوفِ المواجهةُ للجنوبِ لمْ تتغيَّرْ: المغسلةُ البيضاءُ، اللَّوحةُ الباهتةُ الَّتي تصوِّرُ عاصفةً قديمةَ العهدِ، لحافُ ريشِ الطُّيورِ الأزرقُ. كانَ دورقُ الماءِ فارغًا وفي قاعهِ عنكبوتٌ ميِّتٌ، وحقيبةُ سفرِ الفيليجونكة مستقرَّةٌ في وسطِ الغرفَةِ، وعلَى السَّريرِ قميصُ نومٍ ورديٌّ.

أخذَتْ ميمبل حقيبةَ السَّفرِ وقميصَ النَّومِ إلى غرفَةِ نومِ الضُّيوفِ الشَّماليَّةِ وأغلقَتِ البَابَ. غرفَةُ النَّومِ الجنوبيَّةُ هي غرفتُهَا بكلِّ تأكيدٍ، كتأكيدِ وجودِ مشطِهَا القديمِ تحتَ المنديلِ المخرَّمِ علَى المغسلَةِ. رفعَتِ المنديلَ ورأَتِ المشطَ هناكَ. ثمَّ جلسَتْ قربَ النَّافذَةِ، حلَّتْ عقدةَ شعرِهَا الطَّويلِ الجميلِ وبدأَتْ تمشِّطُه. في الأسفلِ، استمرَ الشِّجارُ الصَّباحيُّ غير المسموعِ خارجَ النَّوافذِ المغلقَةِ.

مشَّطَتِ الميمبل ومشَّطَتْ. طقطَقَ شعرُهَا بشراراتٍ كهربائيَّةٍ صغيرَةٍ وازدادَ بريقه أكثرَ فأكثرَ. حدَّقَتْ منَ النَّافذَةِ في الحديقَةِ بذهنٍ شاردٍ، الحديقَةُ الَّتي بدَّلَهَا الخريفُ وحوَّلَهَا إلي مكانٍ غريبٍ وموحشٍ. كانَتِ الأشجارُ مثلَ ديكورِ خشبَةِ مسرحٍ رماديٍّ، مشاهدُ جامدةٌ تقِفُ واحدةً خلفَ واحدةٍ في الضَّبابِ الرَّطبِ، وجميعُهَا جرداءُ. الشِّجارُ غيرُ المسموعِ أمامَ الشُّرفَةِ استمرَّ. كانَا يلوِّحانِ بأيديهمَا يمنةً ويسرةً. أمَّا توفت، فوقَفَ بلا حراكٍ يحملِقُ في الأرضِ.

✽ ✽ ✽

انتشرَ ظلٌ واسعٌ على الوادِي، ما يعنِي سقوط مزيدٍ منَ المطرِ. وعلى مسافةٍ منَ البيتِ كانَ سنفكين يقطعُ الجسرَ، لا بدَّ منْ أنَّهُ هوَ، لأنْ لا أحد آخر يلبسُ مثلَ تلكَ الثِّيابِ الخضراءِ. تريَّثَ عندَ أشجارِ الليلكِ ونظرَ، ثمَّ بدأَ يقتربُ، لكنَّهُ أصبحَ يمشِي بطَريقَةٍ مختلفَةٍ، أبطأ بكثيرٍ. فتَحَتِ الميمبل النَّافذَةَ.

طرحَ الهيميولن الرَّفشَ بعيدًا. «هه! أيُّ ترتيبٍ حقًّا!» قالَ.

والفيليجونكة قالَتْ في الهواءِ: «كانَتِ الحالُ مختلفةً في أيَّامِ ماما مومين.»

وقفَ توفْت يتأمَّلُ جزمتَهَا، لاحظَ أنَّها ضيِّقةٌ جدًّا على قدمَيهَا. ثمَّ أقبلَ المطرُ. أخرجَ ورقةَ شجرٍ محزونةٍ تخلَّتْ عنْ تمسُّكِهَا بشجرتِهَا وطارَتْ لتحطَّ في الشُّرفةِ، أخذَ المطرُ يشتدُّ ويشتدُّ.

«هللو،» حيَّاهُم سنفكين.

تبادلُوا النَّظرَ.

«يبدُو أنَّهَا تمطرُ،» قالَتِ الفيليجونكة بنبرةٍ عصبيَّةٍ. «لا أحدَ في البيتِ.»

وقالَ الهيميولن: «لطيفٌ جدًّا أنَّكَ هُنَا.»

قامَ سنفكين بحركةٍ مبهمَةٍ متردِّدةٍ، وانكمَشَ تحتَ ظلِّ قبَّعتِهِ. ثمَّ استدارَ وعادَ إلى النَّهرِ.

تبعَهُ الهيميولن والفيليجونكة. وقفَا علَى مسافةٍ قصيرةٍ منْ سنفكين، وانتظرَا ريثمَا ينصبُ خيمَتَهُ قربَ الجسرِ، راقبَاهُ يزحفُ إلى داخلِهَا. «لطيفٌ أنَّكَ هُنَا،» قالَ الهيميولن مرَّةً أخرَى.

بقيَا هناكَ فترةً، وانتظرَا تحتَ المطرِ.

«لقدْ أخلدَ إلى النَّومِ،» همسَ الهيميولن. «إنَّهُ منهكٌ.»

لمحتْهُمَا الميمبل يعودَانِ إلى البيتِ. أغلقَتِ النَّافذَةَ، وبحرصٍ هندَمَتْ شعرَهَا الجميلَ بعقدةٍ صغيرةٍ مُحكمةٍ.

لا شيءَ أروعُ مِنْ كونِ المرءِ مرتاحًا، ولا شيءَ أكثرُ بساطةً من هذا. لمْ تشعرِ الميمبل بالأسَفِ علَى أولئكَ الأشخاصِ الذينَ قابلتْهم ثمَّ نسيَتْ أمرَهُم، وحاولتْ ألّا تتورَّطَ فِي مَا يفعلونَهُ. راقبَتْهم وراقبَتْ فوضاهُم باستمتاعٍ مفعَمٍ بالدَّهشَةِ.

كان لحافُ الرِّيشِ أزرقَ اللَّونِ. جمعَتْ ماما مومين الرِّيشَ علَى مدَى ستِّ سنواتٍ، والآن هَا هُوَ فِي غرفةِ نومِ الضُّيوفِ الجنوبيَّةِ بغطائِهِ مِنَ الكروشيه بانتظارِ أنْ يوفِّرَ الرَّاحةَ لشخصٍ مَا. قرَّرَتِ الميمبل أنْ تجهِّزَ قربةَ ماءٍ ساخنٍ لقدمَيهَا، وعرفتْ أينَ تضَعُ عائلةُ المومين هذهِ القِربَ فِي البيتِ. نوَتْ أنْ تغسلَ شعرَهَا بماءِ المطرِ كلَّ خمسَةِ أيَّامٍ. وستأخذُ قيلولةً صغيرةً وقتَ الغسَقِ. في المسَاءِ سيكونُ المطبخُ دافِئًا من طهيِ الطّعامِ.

نعم، يمكنُها أنْ تستلقيَ علَى الجسرِ، وتتفرَّجَ علَى ماءِ النَّهرِ المندفع. أو تجريَ، أو تخوضَ مستنقَعًا بجزمَتِها الحمراءِ. أو تتكوَّرَ على نفسِها وتستمعَ إلَى صوتِ المطرِ يقرعُ السَّطحَ. ليَسَ هناكَ مَا هوَ أسهَلُ مِنْ أنْ يمتِّعَ المرءُ نفسَهَ.

تحرَّكَ يومُ تشرينَ الثَّاني ذاكَ بتؤدَةٍ نحوَ الغسَقِ. زحفَتْ الميمبل تحتَ لحافِ الرِّيشِ، مطَّطتْ ساقيهَا إلَى أنْ طقطقَتَا، ولفَّتْ أصابعَ قدمَيهَا حولَ قربةِ الماءِ السَّاخنِ. وفي الخارجِ واصلَ المطرُ سقوطَهُ. خلالَ ساعتَين سيداهمُهَا جوعٌ كافٍ لتتناولَ عشاءَ الفيليجونكة، وقدْ تشعرُ حينذاكَ بالميلِ نحوَ الدَّردشَةِ. لكنْ في تلكَ اللّحظَةِ ليسَتْ بحاجَةٍ إلَى شيءٍ سوَى الغرقِ فِي الدِّفءِ، والعالَمِ بأسرِهِ لحافُ ريشٍ هائلٌ وفريدٌ يطوِّقُ واحدةً منْ جماعةِ الميمبل، وكلُّ ما عدَا ذلِكَ خارجَهُ. لمْ تحلمْ الميمبل قطّ، نامَتْ عندمَا راقهَا أنْ تفعلَ، واستيقظَتْ عندمَا بدَا لهَا أنَّ هناكَ شيئًا يستحقُّ أنْ تنهضَ منْ أجلِهِ.

10

لاحقًا في تلكَ اللَّيلةِ

كانَ الظَّلامُ يسودُ الخيمةَ. تسلَّلَ سنفكين خارجَ كيسِ نومِهِ، لكنَّ النُّوتَاتِ الخمسَةِ المنشودَةِ لمْ تصبحْ أقربَ. لم تأتِهِ إشارةٌ موسيقيَّةٌ واحدةٌ. في الخارجِ كانَتِ الدُّنيَا هادئةً جدًّا، والمطرُ توقَّفَ. قرَّرَ أنْ يقليَ بعضَ شرائحِ اللَّحمِ، وذهبَ إلى كوخِ الحطَبِ ليحضرَ وقودًا.

عندمَا اشتعلَتِ النَّارُ قصدَ الهيميولن والفيليجونكة الخيمَةَ مجدَّدًا، ووقفَا هناكَ يراقبَانِ من غيرِ أنْ يقولَا شيئًا.

«هلْ تناولتُمَا العشاءَ؟» سألهُمَا سنفكين.

«لا نستطيعُ،» أجابَ الهيميولن. «لا نستطيعُ أنْ نتفقَ حولَ منْ سيتولَّى غسلَ الأوعيةِ.»

«توفْت،» قالَتِ الفيليجونكة.

«لَا، ليسَ توفْت،» اعترضَ الهيميولن. «إنَّهُ يساعدُنِي في الحديقَةِ. يجبُ أنْ تتولَّى الميمبل والفيليجونكة إدارةَ المنزلِ لنَا، النِّساءُ يفعلْنَ هذَا، هَا؟ ألَا تعتقدُ أنَّني على صواب؟ يمكنُنِي أنْ أجهِّزَ القهوةَ، وأتأكَّدَ من أنَّ الجميعَ يحظونَ بوقتٍ لطيفٍ. والجدُّ غرمبل كبيرٌ جدًّا في السِّنِّ، ولَهُ أنْ يتصرَّفَ كمَا يحلُو لَهُ.»

«لماذَا يصرُّ جماعَةُ الهيميولن على تنظيمِ أمورِ غيرِهم منَ النَّاسِ طوالَ الوقتِ!» صاحَتِ الفيليجونكة.

نظرَا معًا إلى سنفكين بقلقٍ وترقبٍ.

تنظيفُ الأوعيَةِ! فكَّرَ سنفكين. إنَّهما لا يعرفَانِ شيئًا عن هذَا. ما هوَ تنظيفُ الأوعيةِ؟ طرحُ صحنٍ في الجدولِ، شطفُ اليدَينِ، رميُ ورقةِ شجرةٍ خضراءَ؟ هذَا لا شيء على الإطلاقِ، عنْ أيِّ شيءٍ يتحدَّثانِ؟

«أليسَ صحيحًا أنَّ جماعةَ الهيميولن يصرُّونَ على تنظيمِ الأمورِ طوالَ الوقتِ؟» سألَتْهُ الفيليجونكة. «هذَا مهمٌّ.»

قامَ سنفكين، تملَّكَهُ شيءٌ منَ الرَّهبَةِ منهمَا. حاولَ التَّفكيرَ فِي تعليقٍ يدلِي بهِ. بيدَ أنَّهُ لمْ يعثرْ على كلامٍ يبدُو مقنعًا.

فجأةً صاحَ الهيميولن: «لنْ أنظِّمَ شيئًا! أريدُ أنْ أعيشَ في خيمَةٍ وأكونَ مستقلًّا!» ثمَّ كشفَ بابَ الخيمَةِ عنوةً وزحفَ إلى الدَّاخلِ.

«أترَى مَا أعنِي،» همسَتِ الفيليجونكة. انتظرَتْ لحظةً أو لحظَتَين ثمَّ غادَرَتْ.

رفعَ سنفكين المقلاةَ مِنْ علَى النَّارِ، غدَا اللَّحمُ فاحمَ السَّوادِ، فالتفَتَ إلَى حشوِ غليونِهِ. بعدَ قليلٍ سألَ بحذرٍ» أأنتَ معتادٌ علَى النَّومِ في خيمَةٍ؟»

أجابَ الهيميولن بصوتٍ مغمومٍ: «العيشُ في البرارِي هوَ أفضلُ مَا أعرفُهُ.»

في تلكَ الآونَةِ أظلمَتِ الدُّنيا تمامًا. وفِي البيتِ أُضيئَتْ نافذتَانِ، والضَّوءُ القشعشعُ بدَا ثابتًا ولطيفًا كمَا جرَتِ الحَالُ دائمًا في الأمسيَاتِ هناكَ.

❃ ❃ ❃

في غرفَةِ نومِ الضُّيوفِ الشَّماليَّةِ استلقَتِ الفيليجونكة، واللِّحافُ يصلُ إلَى أنفِهَا، ولفَافاتُ الشَّعرِ الَّتي آذتْ رقبَتَها تزحمُ رأسَهَا. استلقَتْ تعدُّ العقدَ في السَّقفِ وكانَتْ جائعةً.

طوالَ الوقتِ، منَ البدايةِ، فكرَتِ الفيليجونكة انهَا هِيَ مَنْ ستتولى الطبخَ. راقَ لَهَا ترتيبُ الأوانِي الصَّغيرةِ والأكياسِ على الرُّفوفِ، ولطالَمَا رأتْ أنَّهُ منَ المسلِّي اختراعُ أصنافٍ جديدةٍ منْ بقايا الطَّعامِ، وصنعُ المهلبيَّةِ والكفتَةِ بِهَا، بطريقةٍ لا يمكنُ أنْ يميِّزَها أحدٌ. أحبَّتِ الطَّبخَ على نحوٍ اقتصاديٍّ قدرَ الإمكانِ، والتَّأكُّدَ منْ أنَّه ولَا حبَّة سميدٍ واحدةٌ قدْ هُدرَتْ.

ناقوسُ العائلةِ الضَّخمُ معلَّقٌ في الشُّرفَةِ. ودائِمًا تاقَتِ الفيليجونكة إلى أنْ تكونَ هِيَ منْ يعلِنُ عنِ الغداءِ، جاعلةً النُّحاسَ الرَّنانَ يجلجلُ - دونغ دونغ - عبرَ الوادِي إلى أنْ يُقبِلَ الجميعُ ركضًا وهم يصيحونَ: «الغداءُ! الغداءُ! ماذَا لدينا اليومَ؟ إنَّنا نتضوَّرُ جوعًا!»

ترقرقَتْ عينَا الفيليجونكة بالدُّموعِ. لقَدْ أفسدَ الهيميولن كلَّ شيءٍ. كانَتْ ستغسلُ الأوعيةَ بطيبِ خاطرٍ، شرطَ أنْ تنبعَ الفكرةُ منهَا هِيَ. هه، ينبغِي أنْ تهتمَّ الفيليجونكةُ بإدارةِ المنزلِ لأنَّ هذَا ما تفعلُهُ النِّساءُ! هه هه! ومعَ الميمبل! علاوةً على ذلِكَ!

أطفأَتِ الفيليجونكة المصباحَ حتَّى لا يضيءَ بلَا ضرورةٍ، وغطَّتْ رأسَهَا باللِّحافِ. صرَّ الدَّرجُ. ومنْ غرفةِ الضُّيوفِ جاءَهَا صوتُ قعقعةٍ واهٍ جدًّا جدًّا. في مكانٍ مَا في البيتِ الفارغِ أغلقَ أحدٌ مَا بابًا. كيفَ يمكنُ أنْ تصدُرَ أصواتٌ كثيرةٌ في بيتٍ خالٍ منْ أهلِهِ، فكَّرَتِ الفيليجونكة. ثمَّ تذكَّرَتْ أنَّ البيتَ يعجُّ بالنَّاسِ. إنَّما، بطريقةٍ مَا بدَا لَهَا أنَّهُ ما زالَ فارغًا.

استلقَى الجدُّ غرمبل على الأريكة في صالَةِ الضُّيوفِ، وأنفُهُ مدفونٌ في أفضلِ وسادَةٍ مخمليَّةٍ، وسمعَ حِسَّ شخصٍ يتسلَّلُ إلى المطبخِ. تناهَتْ إليهِ خشخشةُ زجاجٍ خافتةٌ. اعتدلَ في العتمَةِ ونصبَ أذنَيهِ وفكَّرَ: «إنَّهم يقيمونَ حفلَةً.»

عادَ الهدوءُ ثانيةً. عبرَ الجدُّ غرمبل الأرضيَّةَ الباردةَ، ويمَّمَ بابَ المطبخِ. كانَ المطبخُ مظلمًا أيضًا، لكنْ شعَّ بصيصُ ضوءٍ منْ تحتِ بابِ حجرةِ المؤونَةِ.

آها! قالَ لنفسِهِ. لقدِ اختبأوا في مخزنِ المؤونَةِ. دفعَ البابَ، وهناكَ شاهدَ

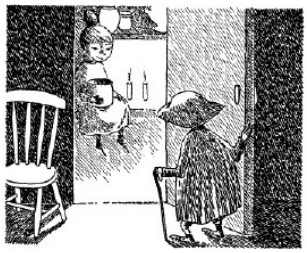

الميمبل جالسة تاكلَ مخللَ الخيارِ، وتمّة شمعتانِ تحترقانِ على الرَّف قربَهَا.

«خطرَتْ لكَ الفكرَةُ نفسُهَا إذًا» بادرَتْهُ الميمبل بالقول. «يوجدُ هنَا مخلَّلُ خيارٍ وبسكويتُ زنجبيلٍ. ذاكَ مخلَّلُ خردَلٍ. يُستحسَنُ ألّا تأكلَ منهُ، إنَّهُ قويٌّ جدًّا عليكَ.»

ثمَّ بعدَ برهةٍ أردفَتْ: «سيسبِّبُ لكَ اضطرابَ معدةٍ. ستنفجرُ وتسقطُ ميتًا في أرضِكَ.»

«لا أحد يموتُ في أيَّامِ العطلَةِ،» ردَّ الجَدُّ غرمبل بمرحٍ. «ما ذاكَ الذي فِي وعاءِ الحساءِ؟»

«إبرُ شجرِ التَّنوبِ،» أجابَتِ الميمبل. «يحشونَ بطونَهم بهَا قبلَ البياتِ الشَّتويِّ.» ثمَّ تابعَتْ وهيَ ترفَعُ الغطاءَ: «يبدُو أنَّ سلَفَهم حشَا بطنَهُ بمعظمِهِ.»

«أيُّ سلَفٍ؟» استفهمَ الجدُّ غرمبل، وهو يمدّ يده خلسةً إلى مخلَّلِ الخيارِ.

«هوَ في المدفأةِ،» شرحَتِ الميمبل. «عمرُهُ ثلاثمئة سنةٍ ودخلَ الآنَ في البَياتِ الشَّتويِّ.»

لمْ يقلِ الجدُّ غرمبل شيئًا، لمْ يستطعْ أنْ يقرِّرَ أيشعرُ بالسُّرورِ أو الإنزعاج لأنَّ هناكَ مَنْ هوَ أكبرُ منهُ سنًّا. ثارَ فيهِ الفضولُ وقرَّرَ أنْ يوقظَ السَّلَفَ ويتعرَّفَ إليهِ.

«اسمعْ،» خاطبَتْهُ الميمبل. «إيقاظُهُ لا يستحقُّ المحاولةَ. لنْ يستيقظَ قبلَ شهرِ نيسانَ. لقدْ قضيْتُ على نصفِ إناءِ مخلَّلِ الخيارِ.»

نخرَ الجدُّ غرمبل وعبسَ، ملأَ جيبَي مِبذلِه بالمخلَّلِ وبسكويت الزَّنجبيل، أخذَ إحدَى الشَّمعتينِ وجرجرَ قدميهِ عائدًا إلى غرفةِ الصُّيوفِ. وضعَ الشَّمعةَ على الأرضيَّةِ أمامَ المدفأةِ وفتحَ أبوابَهَا. لمْ يلمَحْ في الدَّاخلِ سوى الظَّلامِ. رفعَ الشَّمعةَ وقرَّبَهَا منَ المدفأةِ ودقَّقَ النَّظرَ ثانيةً. لمْ يجدْ هناكَ سوى قصاصةِ ورقٍ وبعضِ السّخامِ المتساقطِ منَ المدخنَةِ.

«أنتَ هناكَ؟» نادَى. «استيقظْ! أريدُ أنْ أرَى كيفَ تبدُو!» بيدَ أنَّ السَّلَفَ لمْ يردْ؛ كانَ غارقًا في سباتِهِ وبطنُه محشوٌّ بإبرِ شجرِ التَّنوبِ.

التقط الجدّ غرمبل قصاصة الورق وتبيَّنَ لهُ انها رسالة. جلسَ على الأرضيَّةِ وحاولَ أنْ يتذكَّرَ أينَ وضعَ نظاراتِهِ. ولمْ يفلحْ. عندئذٍ خبَّأ الرِّسالةَ في مكانٍ آمنٍ، أطفأ الشَّمعةَ وزحف إلى الوسائدِ مجدَّدًا. «أتساءَلُ مَا إذا كانَ يُسمحُ للسَّلَفِ أنْ ينضمَّ إليهم عندمَا يقيمونَ حفلةً،» فكَّرَ بانقباضٍ. «لَا بأس. لقدْ قضيتُ يومًا ممتعًا، يومًا يخصُّني وحدِي.»

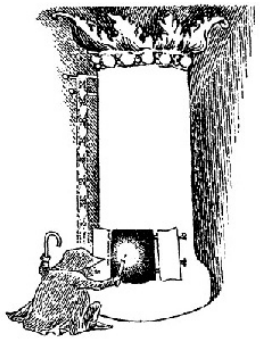

✽ ✽ ✽

استرخَى توفْت في حجرةِ التَّخزين يقرأُ كتابَهُ. الضَّوءُ الذي إلى جانبِهِ وفَّرَ لهُ دائرةَ أمانٍ صغيرَةً في هذا البيتِ الكبيرِ الغريبِ.

«كمَا ذكرْنَا آنفًا،» قرأَ توفْت، «حصَّلَ هذَا الجنسُ العجيبُ طاقتَهُ منَ التَّيَّاراتِ الكهربائيَّةِ الَّتِي تجمَّعَتْ بانتظامٍ في هذهِ الوديانِ المديدَةِ، وأضاءَتِ اللَّيل بألوانِهَا البيضاءِ والبنفسجيَّة. في وسعِنَا أنْ نصوِّرَ لأنفسِنَا آخرَ فردٍ من جنسِ النُّمياتِ المنقرضَةِ عمليًا، والذي صعدَ إلى السَّطح شيئًا فشيئًا، وكافحَ ليشقَّ طريقَهُ تُجاهَ المستنقعاتِ الَّتي لا حدودَ لهَا، في الغاباتِ الغارقةِ بماءِ المطرِ، حيثُ ينعكسُ البرقُ في الفقاعاتِ المنبثقةِ منَ الرَّواسبِ الطِّينيَّةِ، وأخيرًا تخلِّيهِ النِّهائي عن عنصرِهِ الأصلِيِّ.»

«لا شكَّ في أنَّه كانَ وحيدًا جدًّا،» فكَّرَ توفْت. «لم يشبهْ أيَّ واحدٍ منَ الآخرين، وعائلتُهُ لمْ تكترثْ لِأمرِهِ، ولذلكَ رحلَ. أتساءلُ أينَ هوَ الآنَ، وهل تراني سأكونُ قادرًا على مقابلتِه. قدْ يُظهرُ لِي نفسَهُ إذا استطعْتُ أنْ أتخيَّلَهُ وأصفُهُ بوضوحٍ جليٍّ.»

تمَّ قالَ توفت، «نهايةَ الفصلِ،» واطفا الضوءَ.

11

اليومُ التَّالِي

في الفجرِ المبهمِ المتمهِّلِ وليلةِ شهرِ تشرينَ الثَّانِي تنتقلُ بتؤدةٍ إلى الصَّباحِ، أقبلَ الضَّبابُ منَ البحرِ. انعطفَ نحوَ سفوحِ التِّلالِ، حطَّ على الوديانِ في الجانبِ الآخرِ، واحتلَّ كلَّ زاويةٍ منهَا. كانَ سنفكينِ قد قرَّرَ أنْ يستيقظَ مبكِّرًا ليحظَى بساعةٍ أو ساعتينِ لنفسِهِ. ومعَ أنَّ نارَهُ خمدَتْ منذُ وقتٍ طويلٍ لمْ يشعرْ بالبردِ. كانَتْ لديهِ تلكَ القدرةُ البسيطةُ النَّادرةُ للاحتفاظِ بدفئِهِ الخاصِّ، فجمَعَ هذا الدِّفءَ حوالَيهِ واستلقَى بلا أدْنَى حركةٍ وحرصٍ على ألَّا يحلمَ.

جلبَ الضَّبابُ صمتًا كاملًا معَهُ. كانَ الوادي في غايةِ السُّكونِ.

استيقظَ سنفكينِ بسرعةٍ ومتنبِّهًا مثلمَا تفعلُ الحيواناتُ. النُّوتاتُ الخمسةُ بدأَتْ تقتربُ منهُ أكثرُ.

جيِّدٌ، قالَ لنفسِهِ. كوبُ قهوةٍ وستصبِحُ بمتناولِي. (كانَ يجدرُ بهِ أنْ يغفِلَ أمرَ القهوةِ.)

اشتعلَتْ نارُ الصَّباحِ وبدأَتْ تتأجَّجُ. ملأَ سنفكينِ إبريقَ القهوةِ بالماءِ منَ النَّهرِ ووضعَهُ على النَّارِ، تراجَعَ خطوةً إلى الوراءِ وتعثَّرَ بمجرفةِ الهيميولَن. بقعقعةٍ رهيبةٍ تدحرجَتْ قِدرُهُ نحوَ ضفَّةِ النَّهرِ، فأخرجَ الهيميولَن أنفَهُ منَ الخيمةِ وهتفَ: «هللو!»

«هللو!» ردَّ سنفكين.

زحفَ الهيميولَن نحوَ النَّارِ وكيسُ النَّومِ فوقَ رأسِهِ، كانَ يشعرُ بالبردِ والنُّعاسِ لكنَّهُ عازمٌ بحقٍّ أنْ يتصرَّفَ بمودَّةٍ. «الحياةُ في البراري!» قالَ.

اهتمّ سنفكين بغلي القهوةِ.

«فكِّرْ فقط،» تابعَ الهيميولن، «أنْ يكونَ المرءُ قادرًا على سماعِ أصواتِ اللَّيلِ الغامضةِ من داخلِ خيمةٍ حقيقيَّةٍ! أنا واثقٌ منْ أنَّ لديكَ شيئًا من أجلِ تيبُّسِ الرَّقبةِ، أليسَ كذلِكَ؟»

«لَا،» أجابَ سنفكين. «أتريدُ السُّكَّرَ في قهوتِكَ؟»

«سُكَّرٌ، نعم، أُفضِّلُ أربعَ كتلٍ.» بدأَ الدِّفءُ يسري في واجهةِ جسمِهِ، والجزءُ المستدقُّ منْ ظهرِهِ ما عادَ يؤلِمُهُ كثيرًا. القهوةُ كانتْ ساخنةً جدًّا.

«ما اللَّطيفُ فيكَ كثيرًا،» سارَرَهُ الهيميولن، «أهوَ لأنَّكَ فتيٌّ. لا بدَّ منْ أنَّكَ فظيعُ الذَّكاءِ لأنَّكَ لا تقولُ أيَّ شيءٍ. هذا يجعلُني أرغبُ في الحديثِ عنْ قاربِي.»

انقشعَ الضَّبابُ قليلًا، برويةٍ، والأرضُ القاتمةُ الرَّطبةُ بدأَتْ تظهرُ من حولِهمَا ومنْ حولِ جزمَتي الهيميولن الكبيرتَين، إلَّا أنَّ رأسَه بقيَ في الضَّبابِ. بدَا لهُ أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرامُ تقريبًا، ما عدا رقبته. دفَّأتِ القهوةُ بطنَهُ وفجأةً شعرَ أنَّهُ لا يبالِي قيدَ أنملةٍ بمطلقِ شيءٍ.

«أتدري ماذَا؟» بدأَ. «أنا وأنت نفهمُ بعضَنَا. مركبُ بابا مومين في الأسفلِ قربَ كوخِ الاستحمامِ. هناكَ هوَ، أليسَ كذلِكَ؟»

وبالتَّالِي تذكَّرَا رصيفَ الميناءِ، ضيِّقًا ومنعزلًا، يستقرُّ غيرَ ثابتٍ علَى دعاماتٍ سوَّدهَا الزَّمنُ، وكوخُ الاستحمامِ عندَ نهايتِهِ بسقفِهِ المدبَّبِ وبِزجاجِ النَّوافذِ الأحمرِ والأخضرِ، والدَّرجِ المائلِ الَّذي يؤدِّي إلى الماءِ.

«لسْتُ واثقًا من أنَّ المركبَ ما زالَ هناكَ،» قالَ سنفكين وهو يضعُ كوبَهُ أرضًا، وبينَهُ وبينَ نفسه فكَّرَ: «لقدْ أبحرُوا بعيدًا. ولا أشعرُ برغبَةٍ في التَّحدُّثِ عنهم مع هذا الهيميولن.»

لكنَّ الهيميولن مال نحوَهُ وقالَ بنبرةٍ جدِّيَّةٍ: «يجبُ أنْ نذهبَ ونلقيَ نظرةً. أنا وأنت فقط، سيكونُ ذلِكَ أفضلَ هكذَا.»

ذهبَا خلالَ الضَّبابِ الَّذي بدأَ يرتفعُ وينجرفُ بعيدًا عنِ الطَّريقِ. أمَّا في الغابةِ فكانَ أشبه بسقفٍ أبيضَ لا نهائيٍّ محمولٍ على أعمدةٍ سوداءَ من جذوعِ الأشجارِ، طبيعةٌ مهيبةٌ سامقةٌ خُلقَتْ من أجلِ السُّكونِ. فكَّرَ الهيميولن في قاربِهِ بيدَ أنَّهُ لمْ يقلْ شيئًا. تبعَ سنفكين على طولِ الدَّربِ نزولًا إلى البحرِ،

وشعَر اخيرًا ان الامورَ عادَتِ إلى نصابِهَا، واصبحَتْ بالنَسبَةِ إليهِ غيرَ معقدَةٍ وذاتَ معنًى ثانيه.

رصيفُ ميناءِ كوخِ الاستحمامِ بدَا بحالَتِهِ السَّابقةِ. لمْ يكنِ المركِبُ هناك. ألواحُ العبورِ وسلَّةُ السَّمكِ تستقرُّ فوقَ حدودِ الماءِ، وتبيَّنَ أنَّ العائلةَ قامَتْ بسحبِ الزَّورقِ نحوَ الأشجارِ. انجرفَ الضَّبابُ فوقَ الماءِ وكانَ كلُّ شيءٍ أملسَ ورماديًا؛ الشَّاطِئُ، الهواءُ، والسُّكونُ.

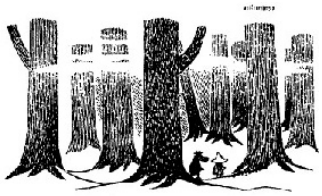

«تعرفُ كيفَ أشعرُ،» انفجرَ الهيميولن، «أشعرُ، أشعرُ بالغرابةِ! ما عادَتْ رقبَتِي متيبِّسةً.» تملَّكتهُ رغبةٌ مفاجئةٌ في أنْ يفضفضَ عن نفسِهِ، ويخبرَ سنفكين عن جهودِهِ في تنظيمِ كلِّ شيءٍ حتَّى يتسنَّى للآخرينَ الاستمتاعُ بوقتِهم. لكنَّ الحياءَ اعتراهُ، وعجزَ عنِ العثورِ على الكلماتِ الَّتي يحتاجُها. تابعَ

سنفكين تقدُّمَهُ أمامَهُ ضفةٌ قاتمةٌ من كلِّ ما لفظَتهُ العاصفةُ وحمله المدُّ. أغراضٌ متروكةٌ، أغراضٌ منسيَّةٌ، تخالطُهَا أعشابُ البحرِ والقصبِ، ثقيلةٌ وكالحةٌ منَ الماءِ، وكلُّهَا حجبَتِ الشَّاطئَ بقدرِ مَا يمكنُ أنْ تراهُ العينُ. الخشبُ المتفسِّخُ عجَّ بالمساميرِ وملازمِ الشَّدِّ. والبحرُ التهمَ الشَّاطئَ صعودًا إلى أوائلِ الأشجارِ الَّتي تدلَّتْ أعشابُ البحرِ منْ أغصانِهَا.

«كانَتِ العاصفةُ تهبُّ بقسوةٍ عاتيةٍ،» علَّقَ سنفكين.

«أنا أحاولُ بذلَ قصارَى جهدِي،» هتفَ الهيميولن من ورائِهِ. «أرغبُ بشدَّةٍ في أنْ أمدَّ يدَ المساعدةِ.»

صدرَتْ عن سنفكين دمدمَتُه الغامضَةُ المعتادةُ الَّتي عنَتْ أنَّهُ سمِعَ مَا قيلَ لكنْ ليسَ لديهِ ما يضيفُهُ. مشى على رصيفِ كوخِ الاستحمامِ. القاعُ الرَّمليُّ

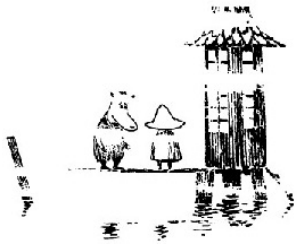

تحتَ الرَّصيفِ حجرَتْهُ كتلٌ بُنيَّةٌ مَا فتِئَتْ تهتزُّ بخفَّةٍ مع حركَةِ الماءِ، كانَتْ أعشاب بحرٍ مزَّقَتْهَا العاصفَةُ إلى فُتاتٍ. انقشعَ الضَّبابُ ولَمْ يكنْ هناكَ في الدُّنيا شاطئٌ مقفرٌ أكثر منهُ.

«أنتَ تتفهَّمُ،» قالَ الهيميولن.

عضَّ سنفكين على غليونِهِ وحدَّقَ في الماءِ. «نعم، نعم،» قالَ، وبعدَ هنيهةٍ أضافَ، «أعتقدُ أنَّ جميعَ القواربِ الصَّغيرةِ يجبُ أنْ تكونَ متراكبةَ الألواحِ.»

«هذا مَا أراهُ أنا أيضًا،» وافقَ الهيميولن. «قاربِي متراكِبُ الألواحِ. إنَّهُ بلا نقاشٍ الأروعُ بالنِّسبةِ إلى القواربِ الصَّغيرةِ. وينبغِي أنْ يُطلَى بالقارِ وليسَ بالدِّهانِ، أليسَ كذلِكَ؟ أنَا أطلِي قاربِي بالقطرانِ كلَّ ربيعٍ قبلَ أنْ أبحرَ. اسمعْ، أتستطيعُ مساعدَتِي بشيءٍ واحدٍ؟ إنَّهُ الشِّراعُ. لا يمكنُنِي أنْ أقرِّرَ هلْ أختارُ اللَّونَ الأبيضَ أو الأحمرَ. الأبيضُ هوَ دائمًا لونٌ جيِّدٌ، كلاسيكيٌّ تقريبًا؟ ثمَّ حدثَ أنْ خطرَ لِي اللَّونُ الأحمرُ، إنَّهُ بطريقةٍ مَا جريءٌ للغايَةِ؟ مَا رأيُكَ؟ أتظنُّ أنَّهُ قد يبدُو استفزازيًّا بعضَ الشَّيءِ؟»

«لا، لا أظنُّ هذَا، اخترِ اللَّونَ الأحمرَ،» أجابَ سنفكين والشُّعورُ برغبةٍ ملحّةٍ في النّومِ يداهمه، ولمْ يَرُمْ سوى التَّسلُّلِ إلى خيمتِهِ ويغلقَ على نفسِهِ فيهَا.

ثرثرَ الهيميولن على طولِ طريقِ العودَةِ عن قاربِهِ. «هذَا غريبٌ،» قالَ. «أشعرُ بهذهِ الألفةِ معَ كلِّ منَ تستهويهِ القواربُ. بابا مومين على سبيلِ المثالِ. في يومٍ رائقٍ يرفعُ الشِّراعَ وينطلقُ، بهذِهِ البساطةِ. حرٌّ تمامًا. أحيانًا، كما تعلمُ، أحيانًا أفكرُ أنَّني أنَا وبابا مومين متشابهانِ. قليلًا فقط، طبعًا، ولكن معَ ذلِكَ...»

صدرَتْ عن سنفكين دمدمتُهُ الغامضةُ.

«نعم، هذَا صحيحٌ،» تابعَ الهيميولن بصوتٍ منخفضٍ. «وأَلَا ترى أنَّ هناكَ شيئًا مميَّزًا في حقيقةِ أنَّ اسمَ مركبِهِ المغامرةُ؟»

افترقا عندَ الخيمَةِ.

«كانَ صباحًا رائعًا،» هتفَ الهيميولن. «أشكرُكَ شكرًا جزيلًا لسماحِكَ لي بالفضفضةِ.»

أغلقَ سنفكين على نفسِهِ في الخيمةِ. كانَت خيمته ذات لون أخضر صيفي. لون يجعلُ المرءَ يعتقدُ أنَّ الشَّمسَ في الخارجِ مشرقةٌ.

✽ ✽ ✽

عندما يمَّمَ الهيميولن البيتَ كانَ الصَّباحُ الباكرُ قدْ مرَّ، وبدأَ النَّهارُ بالنِّسبةِ إلى الباقينَ الَّذينَ لا علمَ لهم بما جرَى معَه. فتحَتِ الفيليجونكة نافذتَهَا لتهوِّي الغرفةَ.

«صباحُ الخير!» حيَّاهَا الهيميولن بصوتٍ عالٍ. «نمْتُ في الخيمةِ! وسمعْتُ أصواتَ اللَّيلِ كلَّها!»

«أيُّ أصواتٍ؟» استفهمَتِ الفيليجونكة بحدَّةٍ، وثبَّتَتْ مصراعَ النَّافذَةِ.

«أصواتُ اللَّيلِ،» كرَّرَ الهيميولن. «أعنِي الأصواتَ الَّتِي يمكِنُ سماعُهَا في اللَّيلِ.»

«إيه، نعم،» غمغمَتِ الفيليجونكة.

لمْ تكنْ تحبُّ النَّوافِذَ فهيَ خطِرةٌ، وما يُدرِي المرءَ مَا النَّوافذُ، تنفتحُ وحدَهَا بجنونٍ، وتنغلقُ عنوةً...وغرفةُ نومِ الضُّيوفِ الشَّماليَّةُ أشدُّ بردًا منَ الخارجِ. جلسَتْ أمامَ المرآةِ، ارتعشَتْ قليلًا ونزعَتِ اللَّفافاتِ منْ شعرِهَا وهيَ تفكِّرُ أنَّهَا دائمًا أقامَتْ في النَّاحيةِ الجَنوبيَّةِ، حتَّى في بيتِهَا، وما هيَ فيهِ الآن مقلوبٌ رأسًا على عقبٍ بالنِّسبةِ إلى فيليجونكة. لم يجفَّ شعرُهَا كما ينبغي، وهذا ليسَ مستغربًا في غرفةٍ رطبَةٍ كهذِهِ، تجاعيدُ شعرِهَا انسدلَتْ مثلَ مشاعِرٍ نارٍ مُقوَّمَةٍ، كلُّ شيءٍ خطأٌ، كلُّ شيءٍ، بما في ذلكَ تسريحةُ شعرِهَا المهمَّةُ لهَا، وكذلِكَ بوجودِ الميمبل في البيتِ أيضًا. البيتُ رطبٌ ومتربٌ ونتنُ الرَّائحةِ،

وينبغِي انْ تهوَّى غرفةَ بتيَّارٍ متقاطِعٍ، وكميَّاتٍ هائلةٍ منَ الماءِ الدّافئِ، مع تنظيفٍ ربيعيّ شامل وعظيم ورائع...

ما كادَتِ الفيليجونكة تفكِّرُ في تنظيفاتِ الرَّبيع إلَّا واجتاحتْهَا موجةٌ منَ الدُّوارِ والغثيانِ، وللحظةٍ واحدةٍ فظيعةٍ شعرَتْ أنَّها متعلِّقةٌ بشفيرٍ هاويةٍ. ففكَّرْتَ: «لَنْ أتمكَّنَ مطلقًا وأبدًا منَ التَّنظيفِ. كيفَ لِي أنْ أواصِلَ العيشَ مَا دُمْتُ عاجزةً عَنِ التَّنظيفِ وطهي الطّعامِ؟ لَا شيء غدًا ذلِكَ يستحقُّ عناءَ القيامِ بهِ.»

نزلَتِ الفيليجونكة على الدَّرج ببطءٍ. وجدَتِ الآخرين جالسِينَ في الشُّرفَةِ يحتسونَ القهوةَ. وقفتِ تتأمّلهم. عاينَتْ قبَّعَةَ الجدِّ غرمبل المستطيلة ذاتِ الإبزيمِ، وشعرَ توفت الأشعثَ، رقبةَ الهيميولن الثّخينة المصطبغة بشيءٍ منَ الحمرةِ بسببِ هواءِ الصَّباحِ القارسِ، هناكَ جلسُوا، وشعر الميمبل، أوه يا ربِّي،

في غايةِ الجمالِ – وبلا سابقِ إنذارٍ هيمَنَ علَى الفيليجونكة إعياءٌ بالغٌ وقالَتْ لنفسِهَا: «إنَّهم لا يحبُّونَنِي أبدًا.»

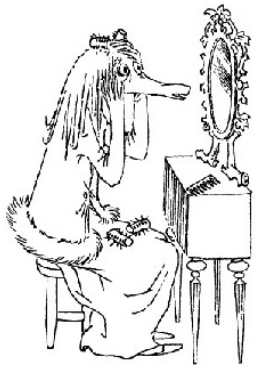

وقفَتْ وسطَ غرفَةِ الضُّيوفِ، وتلفَّتَتْ تنظرُ حوالَيهَا. لقَدْ شغَّلَ الهيميولن السَّاعةَ، ونقرَ على البارومتر. الأثاثُ في مكانِهِ المعتادِ وكلُّ شيءٍ سبقَ أنْ جرَى هناكَ غُمَّ عليهِ وحُجِبَ وليسَ لهُ أيُّ علاقةٍ بهَا.

فجأةً، وعلَى جناحِ السُّرعَةِ، ذهبَتِ الفيليجونكة لتحضِرَ بعضَ الحطَبِ منَ المطبَخِ. أرادتْ أنْ تشعلَ نارًا كبيرةً في المدفأةِ لتدفئَ البيتَ المهجورَ، من أجلِ أولَئِكَ الّذينَ يسعُونَ إلَى الإقامَةِ فيهِ.

✽ ✽ ✽

«اسمَعْ انتَ هناكَ، مهمَا يكن اسمُكَ،» صاحَ الجدّ غرمبل من خارجِ الخيمَةِ. «لقدْ أنقذْتُ السَّلَفَ! صديقِي السَّلَف! غابَ عنهَا أنَّهُ يعيشُ في المدفأةِ، كيفَ أمكنَهَا ذلِكَ! والآنَ هي قابعَةٌ في سريرِهَا تبكِي.»

«مَنْ؟» استفسرَ سنفكين

«تلك الَّتي تضعُ وشاحَ الرِّيشِ، طبعًا،» هتفَ الجدُّ غرمبل. «أليسَ هذَا فظيعًا؟»

«إنَّها تهدِّئُ نفسَهَا،» غمغمَ سنفكين من داخلِ الخيمَةِ.

بوغِتَ الجدُّ غرمبل من هذَا الجواب، وأصابَتهُ خيبةُ أملٍ كبيرةٍ. خبطَ الأرضَ بعصاهُ وتفوَّهَ بكثيرٍ منَ الكلماتِ الشَّائنةِ بينَهُ وبينَ نفسِهِ، ثمَّ نَزلَ إلَى الجسرِ حيثُ كانَتِ الميمبلُ جالسَةً تمشِّطُ شعرَهَا.

«أرأيتِ كيفَ أنقذْتُ السَّلَفَ؟» سألَهَا بنبرَةٍ صارمَةٍ. «لحظة واحدة وكانَ سيحترقُ.»

«لكنَّهُ لمْ يحترقْ،» قالَتِ الميمبل.

إنبرَى الجَدُّ غرمبل يسهبُ في التَّفسيرِ: «لَا أحدٌ فيكم يفقَهُ شيئًا عندمَا يحدثُ أمرٌ جلَلٌ فِي هذهِ الأيَّامِ. لديكم كلُّكم المشاعرُ غيرُ الصَّائبةِ. بل ربَّمَا أنتم لا تستلطفونَنِي.» رفعَ أداةَ صيدِ السَّمكِ الخَاصَّةِ بهِ ووجدَهَا فارغةً.

«في الرَّبيعِ يكونُ هناكَ سمكٌ في النَّهرِ،» قالَتِ الميمبل.

«هذَا ليسَ نهرًا، إنَّهُ غديرٌ،» صاحَ. «هذَا غديرِي وهوَ مكتظٌّ بالسَّمكِ!»

«اسمعْنِي الآنَ أيُّها الجدُّ غرمبل،» بادرَتِ الميمبل إلى القولِ بهدوءٍ. «هذَا ليسَ نهرًا ولَا غديرًا. إنَّهُ جدولٌ. لكنْ إذَا كانَتْ عائلةُ المومين تسَميهِ نهرًا، فهوَ نهرٌ. أنَا الوحيدةُ الَّتي تستطيعُ أنْ ترَى أنَّهُ جدولٌ. لماذَا تسعَى إلَى إحداثِ ضجَّةٍ عن أشياءَ لا وجُودَ لهَا وأشياءَ لمْ تحدُثْ؟»

«هذَا لأجعلَ الأمورَ مسلِّيةً أكثرَ،» ردَّ الجدُّ غرمبل.

مشطتِ الميمبل شعرَهَا ومشطتْ، والمشط حف مثلَ ماءٍ على شاطئٍ رمليٍّ، موجةٌ إثرَ موجةٍ، بتكاسلٍ وبلا إزعاجٍ.

وقفَ الجدُّ غرمبل وقالَ بتعالٍ عظيمٍ: «إذا كنْتِ ترينَ أنَّ هذَا جدولًا، أعليكِ أنْ تذكرِي ذلِكَ؟ طفلةٌ رهيبةٌ، لماذَا تريدِينَ جعلِي أشعرُ بالبؤسِ؟»

توقَّفَتِ الميمبل عنْ تمشيطِ شعرِهَا وهيَ في منتَهَى الدَّهشَةِ. «أنَا أحبُّكَ،» قالَتْ. «ولَا أريدُ أنْ أجعلَكَ تشعرُ بالبؤسِ.»

«جيِّدٌ،» قالَ الجدُّ غرمبل. «إذًا عليكِ الكفّ عنْ إخبارِي كيفَ هيَ الأشياءُ، واتركِي لِي خيارَ التَّصديقِ بأشياءَ لطيفةٍ.»

«سأحاولُ،» أجابَتِ الميمبل.

كانَ الجدُّ غرمبل في غايةِ الانزعاج. قصدَ الخيمةَ، خبطَهَا وصاحَ: «أنتَ في الدَّاخلِ! أهذَا غديرٌ أو نهرٌ أم هوَ جدولٌ؟ أفيهِ سمكٌ أم لا؟ لماذَا لا يبدُو شيءٌ كمَا درجَ أنْ يكونَ؟ ومتَى ستخرجُ وتهتمُّ بما يدورُ من حولِكَ؟»

«قريبًا،» ردَّ سنفكين بصوت مشاكسٍ. أرهفَ السَّمعَ بقلقٍ، إلَّا أنَّ الجدَّ غرمبل لمْ يقلْ أيَّ شيءٍ آخرَ.

«يجبُ أنْ أخرجَ وأنضمَّ إليهم،» فكَّرَ سنفكين. «هذَا لا يُجدِي. لأيِّ سببٍ عدْتُ إلى هُنَا؟ ما شأنِي بهم؟ هم لا يعرفونَ شيئًا عنِ الموسيقى.» انقلبَ على ظهرِهِ، انبطحَ على بطنِهِ، دفنَ أنفَهُ في كيسِ النَّومِ. ومهمَا فعلَ، كانُوا هناكَ في خيمَتِهِ، طوالَ الوقتِ. عينَا الهيميولن الثَّابتتَانِ، والفيليجونكة المستلقية في سريرِهَا تبكِي، وتوفت الذِي يلتزِمُ الهدوءَ ويحدِّقُ في الأرضِ، والجدُّ غرمبل المسنُّ والمرتبكُ... كانُوا في كلِّ مكانٍ، في رأسِه بالضَّبطِ، وزيادةً على ذلِكَ الخيمةُ تفوحُ برائحةِ الهيميولن.

«يجبُ أنْ أخرجَ،» قالَ سنفكين لنفسِهِ. «التَّفكيرُ فيهم أسوأُ منْ أنْ أكونَ معَهم. ربَّاهُ كمْ هم مختلفونَ عنْ عائلَةِ المومين. أولئكَ كانُوا أيضًا مصدرَ إزعاجٍ، ما أرادُوا إلَّا أن يثرثرُوا. كانُوا في كلِّ مكانٍ. لكن معهم في وسعِ المرءِ أنْ يختلِي بنفسِهِ. كيفَ درجُوا على التَّضرُّفِ فعلًا؟» تساءلَ سنفكين بدهشةٍ. «كيفَ يُعقلُ أنَّني أستطيعُ ملازمَتهم في أيَّامِ الصَّيفِ الطَّويلةِ من غيرِ أنْ ألاحظَ أنَّهم لطالمَا أفسحوا لِي المجالَ لأنفردَ بنفسِي؟»

12

رعدٌ وبرقٌ

قرأَ توفْت ببطءٍ وتركيز: «لا كلمات يمكنُ أنْ تصفَ فترةَ التَّشويشِ الَّتي لا شكَّ في أنَّها تلتْ عدمَ ظهورِ الكهرباءِ. لدينا سببٌ لنفترضَ أنَّ هذا الفردَ منَ الثَّمَيات، هذه الظَّاهرةُ المعزولةُ الَّتي على الرَّغمِ منْ كلِّ شيءٍ، ما زالَ ممكنًا أنْ ننسبَها إلى مجموعةِ البروتوزوا أو الكائناتِ الأوليَّةِ، قدْ واجَهَ عرقلةً في تطوُّرِه، ومرَّ بمرحلةِ نموٍّ قزميٍّ. قدرتُهُ على الوميضِ الفسفوريِّ توقَّفَتْ، والمخلوقُ السَّيِّئُ الحظِّ عاشَ حياةً تخفُّ في الشُّقوقِ والتَّجاويفِ العميقةِ الَّتي زوَّدَتْهُ بملجأٍ مؤقَّتٍ بعيدًا عنِ العالمِ الخارجيِّ.»

«ذاكَ هوَ،» همسَ توفْت. «يمكنُ الآنَ أنْ يهاجمَهُ أيُّ شخصٍ، مَا عادَ مُكَهربًا... هوَ فقط ينكمِشُ وينكمشُ ولا يدري إلى أينَ يلجأُ...» تكوَّرَ توفْت في شبكةِ البركةِ، وبدأَ يصفُ لنفسِهِ بعينِ خيالِهِ كلَّ مَا يتعلَّقُ بذلكَ المخلوقِ. سمحَ لهُ أنْ يقصدَ الوادِيَ حيثُ يقيمُ توفْت الَّذي يستطيعُ ابتدَاعَ عواصفَ كهربائيَّةٍ. وهكذا أضاءَتْ ومضاتُ برقٍ بنفسجيَّةٍ وبيضاءَ الوادِيَ الفسيحَ، من بعيدٍ في بادِئِ الأمرِ، ثمَّ ازدادَتِ الومضاتُ اقترابًا أكثرَ فأكثرَ...

✽ ✽ ✽

لم تعلق سمكة واحدة بأداةِ صيدِ الجدِّ غرميل. كانَ يأخذُ إغفاءَةً على الجسرِ وقبَّعَتُهُ فوقَ أنفِهِ. إلى جانبِهِ استلقَتِ الميمبل على الحصيرَةِ الَّتي أخذَتْهَا من

امامِ المدفأةِ، وسرَحَتْ بنظرِها تتأمّلُ الماءِ الجاري. امّا الهيميولن فقبعَ قربَ صندوقِ البريدِ يخطّطُ حروفًا كبيرةً على قطعةٍ منَ الخشبِ. كانَ يكتبُ عبارةَ «وادي المومين» بصباغٍ ماهوغاني اللّونِ.

«لِمَنْ هذَا؟» سألَتْهُ الميمبل. «إذَا وصلَ المرءُ في طريقِهِ إلَى هذَا الحدِّ سيعرفُ أنَّهُ هُنَا.»

«لا، هذَا ليسَ للآخرين،» شرحَ الهيميولن، «إنَّهُ لنَا.»

«لماذَا؟» سألَتْهُ الميمبل من جديدٍ.

«لا أدري،» أجابَ الهيميولن بدهشَةٍ. خطَّطَ الحرفَ الأخيرَ بينمَا هوَ يفكِّرُ ثمَّ قالَ مقترحًا: «ربَّمَا على سبيلِ التَّأكُّدِ؟ هناكَ شيءٌ مميَّزٌ نوعًا مَا في الأسمَاءِ، إذَا فهمْتِ ما أعنِي.»

«لَا،» صرَّحَتِ الميمبلُ.

أخذَ الهيميولن مسمارًا كبيرًا من جيبِ بنطلونِهِ، وبدأَ يثبِّتُ قطعةَ الخشبِ على حاجزِ الجسرِ. صحَا الجدُّ غرميلُ وغمغَمَ: «أنقِذُوا السَّلَفَ...» ثمَّ فجأةً خرجَ سنفكين منْ خيمتِهِ وصاحَ: «ماذَا تفعلُ؟ توقَّفْ فورًا!»

لمْ يسبقْ لهم أنْ رأَوا سنفكين يفقدُ سيطرَتَهُ علَى نفسِهِ، أخافَهم ذلِكَ وأحرجَهم. لا أحد نظرَ إليهِ. انتزعَ الهيميولن المسمَارَ.

«لا داعي لأنْ تشعرَ بالإهانَةِ!» خاطبَهُ سنفكين بفظاظةٍ. «أنتَ تعرفُ ما أَنَا عليهِ!» إذ أيُّ هيميولن يجبُ ألَّا يخفَى عليهِ أنَّ سنفكين يمقُتُ اليافطاتِ، كلَّ مَا يذكِّرُهُ بالممتلكاتِ الخاصَّةِ: «ممنوعٌ الدُّخول»، «منطقةٌ محرَّمةٌ»، «ابتعدُوا». أيُّ مخلوقٍ مهتمٍّ بأيِّ سنفكين يعرفُ أنَّ اليافطاتِ والملاحظاتِ هي الشَّيءُ الوحيدُ الَّذي يؤجِّجُ غضبَهُ، ويجعلُهُ يشعرُ أنَّهُ غيرُ محصَّنٍ وتحتَ رحمَةِ الآخرين. ثمَّ ما لبثَ سنفكين أنْ خجلَ من نفسِهِ! لقدْ صرخَ، وتمادَى وهذَا ليسَ أمرًا يمكِنُ غفرَانُه، حتَّى لو نزعَ المرءُ مساميرَ العالمِ كلَّها.

تركَ الهيميولن قطعةَ الخشبِ تنزلِقُ إلى الماءِ. وسرعانَ مَا اختلطَتِ الحروفُ ببعضِها ومَا عادَتْ مقروءةً، وتكفَّلَ التَّيَّارُ بمهمَّةِ حملِ اليافطةِ إلَى البحرِ.

«انظرْ،» قالَ الهيميولن. «ها هيَ تذهبُ. لعلَّهَا لمْ تكنْ بالأهميَّةِ الَّتِي تخيَّلْتُهَا.»

تغيَّرَ صوتُ الهيميولن قليلا. حملتْ نبرتهُ درجةَ أقلَّ مِنَ الاحترامِ، كمَا يحدثُ عندمَا يتقرَّبُ المرءُ من أحدِهم، ويرَى أنَّ التبسُّطَ معَهُ في الكلامِ مشروعٌ. لمْ يقلْ سنفكين شيئًا، اكتفَى بالوقوفِ بلا حراكٍ. ثمَّ بِلا سابقِ إنذارٍ جرَى إلى

صندوقِ البريدِ عندَ حاجزِ الجسرِ، رفعَ الغطاءَ ونظرَ في الصُّندوقِ، ثمَّ جرَى إلَى شجرةِ القيقَبِ، حشرَ يدَهُ في فجوةِ جذعِهَا.

فوقفَ الجدُّ غرمبل وصاحَ: «أتتوقَّعُ رسالةً؟»

كانَ سنفكين قدْ وصلَ إلى كوخِ الحطبِ. قلبَ منصَّةَ التَّحطيبِ رأسًا علَى عقبٍ. دخلَ كوخَ الحطبِ، وفتَّشَ وراءَ رفِّ النَّافذةِ عند مقعدِ النِّجارةِ.

«أتبحثُ عن نظَّارَتِكَ؟» سألَهُ الجدُّ غرمبل باهتمامٍ.

تابعَ سنفكين سيرَهُ وقالَ: «أريدُ أنْ أبحثَ بسلامٍ.»

«حقًّا!؟» هتفَ الجدُّ غرمبل وتبعَهُ بأسرعِ مَا يمكنُهُ. «أنتَ مصيبٌ تمامًا. مضَى وقتٌ كنْتُ خلالَهُ لا أنفكُّ أفتِّشُ طوالَ اليومِ عنْ أشياءَ وكلماتٍ وأسماءٍ أضعْتُها. وأسوأُ شيءٍ كانَ عندمَا يحاولُ النَّاسُ مساعدَتِي.» شدَّ معطفَ سنفكين، وأحكمَ تمسُّكَهُ بهِ وأردَفَ: «أتعرفُ كيفَ بدَا ذلِكَ والنَّاسُ يسألونَنِي: متَى رأيتَهُ آخرَ مرَّةٍ؟ حاولْ أنْ تتذكَّرَ. متَى حدثَ ذلِكَ؟ وأينَ حدثَ؟ هَا، هَا، انتهَى ذلِكَ كلُّه وانقضَى. الآنَ سأنسَى مَا أرغبُ في نسيانِهِ وفقدِه كمَا يحلُو لِي. الآنَ، يمكنُنِي أنْ أخبرَكَ...»

«يا جدُّ غرمبل،» بدأَ سنفكين، «السَّمكُ يسبحُ قربَ الضّفَّةِ في الخريفِ. لا سمكَ هناكَ في وسطِ النَّهرِ.»

«الغديرِ،» صحَّحَ لهِ الجدُّ غرمبل ببشاشةٍ. «هذَا أوَّلُ شيءٍ منطقيٍّ أسمعُهُ اليومَ.» ثمَّ ابتعدَ علَى الفورِ. وتابعَ سنفكين بحثَهُ؛ كانَ يفتِّشُ عن رسالةِ وداعِ مومين ترول الَّتِي يجبُ أنْ تكونَ في مكانٍ مَا، لأنَّ أيَّ مومين ترول لا ينسَى أبدًا أنْ يقولَ إلى اللِّقاءِ، بيدَ أنَّ كلَّ مخابئِهمَا كانَتْ فارغةً.

مومين ترول هوَ الوحيدَ الذي يعرف كيف يكتبُ رسالة لسنفكين؛ موجزة ومباشرة، لا شيءَ فيها عنِ الوعودِ والاشتياقِ والعواطفِ والأحزانِ، ثمَّ الاختتامُ بطُرفةٍ.

دخلَ سنفكين البيتَ، وصعدَ إلى الطَّابقِ الثَّانِي. انتزعَ عقدةَ الدَّرابزين الضَّخمة، ورأى أنَّ تجويفَها كانَ فارغًا أيضًا.

«فارغٌ!» قالَتِ الفيليجونكة منْ خلفِهِ. «إذَا كنْتَ تسعَى وراءَ أغراضِهِم الثَّمينةِ فهيَ ليسَتْ هناكَ. إنَّها في خزانَةِ الثِّيابِ وهيَ مقفلةٌ.» كانَتْ جالسَةً عندَ مدخلِ بابِ غرفتِهَا، والبطانيَّاتُ حولَ ساقَيهَا ووشاحُهَا الرِّيشيُّ يغطِّي أنفَهَا.

«هم لا يقفلونَ أيَّ شيءٍ مطلقًا،» قالَ سنفكين.

«الجوُّ باردٌ!» اشتكَتِ الفيليجونكة. «ولماذَا لا تحبُّنِي؟ «لماذَا لا تجدُ لِي شيئًا أفعلُهُ؟»

«يمكنُكِ أنْ تنزلِي إلَى المطبخِ،» غمغَمَ سنفكين. «الجوُّ هناكَ أدفَأُ.»

لمْ تجبِ الفيليجونكة. ومنَ الخارجِ تنَاهَى إليهمَا هديرُ رعدٍ خافتٌ جدًّا وبعيدٌ.

«همْ لا يقفلونَ أيَّ شيءٍ أبدًا،» كرَّرَ سنفكين، ثمَّ قصدَ خزانَةَ الثِّيابِ وفتحَ بابَهَا. كانَتِ الخزانَةُ فارغَةً. بعدئذٍ نزلَ إلَى الطَّابقِ الأرضِيِّ منْ غيرِ أنْ يلتفِتَ إلَى الوراءِ.

نهضَتِ الفيليجونكة ببطءٍ... استطاعَتْ أنْ ترَى أنَّ الخزانَةَ فارغَةٌ. لكنْ منْ خارجِ الظُّلمَةِ المتربَةِ فاحَتْ رائحَةٌ غريبةٌ فظيعةٌ؛ رائحةُ التَّعفُّنِ الخالصةُ. لا شيءَ في الخزانَةِ إلَّا مسَّاكَةُ إبريقٍ مصنوعةٌ منَ الصُّوفِ أكلَهَا العثُّ، وطبقَةٌ ناعمَةٌ منَ الغبارِ الرَّماديِّ. حشرَتِ الفيليجونكة رأسَهَا في الخزانَةِ، وارتعشَتْ وهيَ تفعلُ ذلكَ. أليسَتْ تلكَ آثارَ أقدامٍ صغيرةٍ متعثِّرةٍ في الغبارِ، أقدامٍ في غايَةِ الصِّغرِ، غيرِ مرئيَّةٍ تقريبًا...؟ شيءٌ مَا كانَ يعيشُ في الخزانَةِ وأطلَقَ سراحَهُ. هوَ

منْ ذلكَ النَّوعِ منَ الأشياءِ الَّتي تتسلَّلُ زاحفةً عندمَا يقلبُ المرءُ حجرًا، الأشياءُ الَّتي تزحفُ تحتَ النَّباتاتِ النَّتنةِ، إنَّها تعرفُ. والآنَ هَا هيَ تلكَ

الأشياءُ طليقة! خرجَتْ من غيرِ أنْ تخدش سيقانَهَا، بظهورٍ تطقطق، ومجسَّاتٍ تتحسَّسُ بِهَا طريقَهَا، أو تزحفُ على بطونِهَا اللَّيِّنةِ البيضاءِ... وفي الحالِ صرخَتْ: «توفت! تعالَ إلى هُنَا!» فخرجَ توفت من حجرةِ التَّخزينِ وجاءَ، كانَ منكمِشًا ومرتبكًا ونظرَ إليهَا كمَا لو أنَّهُ لم يميِّزْهَا. وسّع فتحتي أنفه، وشمَّ رائحة كهرباءٍ قويَّة، حادَّةً ولاذعة.

«لقدْ خرجَتْ الزّواحف!» زعقَتِ الفيليجونكة. «كانَتْ تعيشُ في الدَّاخلِ هُنَا، والآن خرجَتْ!»

تأرجَحَ بابُ خزانةِ الثِّياب، ولاحظَتِ الفيلجونكة حركةً، بارقةُ خطرٍ – صرخَتْ! لكنَّ ذلِكَ لم يكنْ سوى انعكاسَ صورتِهَا على مرآةِ البابِ الدَّاخليَّةِ، وما زالَتِ الخزانةُ فارغةً. اقتربَ توفت وكفَّاهُ على فمِهِ، عينَاهُ مستديرتَانِ وفاحمتَا السَّوادِ. ازدادَتْ رائحةُ الكهرباءِ حدَّةً أكثرَ فأكثرَ.

«لقدْ حثثتُه على الخروج،» همس. «هوَ حقيقيٌّ، والآنَ جعلْتُه يخرجُ.»

«ما ذاكَ الَّذي جعلْتَهُ يخرجُ؟» سألَتْهُ الفيلجونكة باضطرابٍ.

«هزَّ توفْت رأسَهُ. «لا أدرِي!» أجابَ.

«لكنْ لا بدَّ منْ أنَّكِ قدْ رأيْتَ تلكَ الحشراتِ،» أصرَّتِ الفيليجونكة. «فكِّرْ جيِّدًا. كيفَ بدَتْ؟»

لمْ يردَّ توفْت، بلْ جرَى عائدًا إلى حجرةِ التَّخزينِ، وأغلَقَ علَى نفسِهِ فيها. كانَ قلبُهُ يخبطُ بجنونٍ. هذا صحيحٌ حقًّا إذًا... خرجَ الكائنُ إلى الوادِي. فتحَ الكتابَ على الصَّفحةِ المناسبَةِ، وهجَّأَ الكلماتِ بأسرَعِ ما استطاعَ: «بناءً على ما لدينَا منْ سببٍ للافتراضِ، تركيبُهُ كيَّفَ نفسَهُ شيئًا فشيئًا معَ هذهِ البيئةِ المحيطةِ الجديدَةِ، وضرورةُ التَّأقلمِ معهَا بصبرٍ وأناةٍ شكّلَتِ الشُّروطَ الَّتي تجعلُ نجاتَهُ تبدُو ممكنةً. هذا الوجودُ الَّذي لا نجرُؤُ إلَّا على وصفِهِ بأنَّهُ فرضيَّةٌ خالصَةٌ، مجرَّدُ تخمينٍ، واصلَ تطوُّرَهُ الغامضَ لفترةٍ غيرِ محدَّدةٍ منْ غيرِ أنْ ينتهجَ سلوكُهُ النَّمطيُّ طريقةً متوائمَةً معَ مسيرةِ الأحداثِ الَّتي ننظرُ إليهَا عادةً باعتبارِهَا طبيعيَّةً...»

«أنا لا أفهمُ شيئًا،» همسَ توفْت. «هذهِ كلُّها كلماتٌ... كلماتٌ... وإذَا لمْ أسرِعْ، سيفسدُ كلُّ شيءٍ!» انهارَ فوقَ الكتاب، وكفَّاهُ تقبضانِ على شعرِهِ، وتابعَ تخيُّلَ الأشياءِ ووصفَهَا لنفسِهِ بيأسٍ، وبأسلوبٍ فوضويٍّ، لأنَّهُ أدركَ أنَّ المخلوقَ كانَ يزدادُ ضآلةً طوالَ الوقتِ، ويعجزُ عنْ دعمِ كيانِهِ.

ما لبثَت العاصِفةُ الرَّعديّة ان اقتربَتْ واقتربَتْ! واخذ البرق يومض منَ الاتجاهاتِ كافّةً! الشَّراراتُ الكهربائيَّةُ تطايرَتْ في الأرجَاءِ، وأحسَّ بهَا المخلوقُ – فورًا! وبدأ ينمُو وينمُو... ثمَّ تزايدَ البرقُ، أبيضَ وبنفسجيًّا! أصبحَ المخلوقُ أكبرَ حجمًا. أصبحَ كبيرًا جدًّا إلى درجةِ أنّهُ لمْ يعُدْ تقريبًا بحاجَةٍ إلى عائلَةٍ تؤازرُهُ...

شعرَ توفْتِ عندئِذٍ بالتَّحسُّنِ. استلقَى علَى ظهرِهِ، ونظرَ عاليًا إلى كوَّةِ السَّقيفةِ الّتي تجلَّلَتْ بسحبٍ رماديَّةٍ. سمعَ بوضوحٍ الرَّعدَ يقعقعُ في المدَى، بدَا وقعُهُ بالضَّبطِ مثلَ صوتٍ غرغرَةِ حنجرةِ المرءِ قبلَ أنْ يستولِيَ عليهِ الجوعُ فعلًا.

✽ ✽ ✽

نزلَتِ الفيليجونكةِ إلى الأسفلِ درجةً درجةً. افترضَتْ أنَّ الحشراتِ الصَّغيرةَ الفظيعَةَ لمْ تزحفْ في اتجاهاتٍ مختلفَةٍ، بلْ علَى الأرجَحِ تجمَّعَتْ معًا، مشكِّلَةً كتلةً متماسكَةً متربِّصَةً في تجويفٍ مَا مظلمٍ ورطبٍ. تكمُنُ بلَا أدنَى حركةٍ، في إحدَى حفرِ الخريفِ الخفيَّةِ والمعفنَةِ. لكنْ ربَّمَا لَا! ربَّمَا هيَ تحْتَ الأسِرَّةِ، في دروجِ المكتَبِ، في حذاءِ أحدِهم – يمكنُ أنْ تكونَ في أيِّ مكانٍ!

لا عدلَ في هذَا، فكَّرَتِ الفيليجونكة. لا شيءَ كهذَا يحدثُ لأيِّ أحدٍ في دائرَةِ معارِفِي، لا يحدثُ إلَّا لِي فقط! جرَتْ إلَى الخيمَةِ بخطواتٍ واسعَةٍ مضطربَةٍ، وتلمَّسَتْ بعشوائيَّةٍ ستارَ الخيمَةِ المسدَلَ وهيَ تهمُسُ بصوتٍ أجشَّ: «افتحْ، افتحْ لِي... هذهِ أنَا الفيليجونكة!»

شعرَتْ أنَّهَا بأمانٍ في الخيمَةِ، تهاوَتْ علَى كيسِ النَّومِ، وطوَّقَتْ ركبَتيهَا بيدَيهَا. «لقَدْ خرجَتْ. أطلقَهَا أحدُهُم منْ خزانَةِ الثِّيابِ، ويمكنُ أنْ تكونَ في أيِّ مكانٍ...» قالَتْ بارتبَاكٍ. «ملايينُ منَ الحشراتِ المروِّعةِ كامنةٌ تتربَّصُ...»

«هلْ شاهدَهَا أحدٌ آخرُ؟» سألَهَا سنفكين بحذرٍ.

«طبعًا لَا،» ردَّتِ الفيليجونكة بنفادِ صبرٍ. «إنَّهَا أنَا منْ تتربَّصُ بِي!»

نفضَ سنفكين غليونَهُ، وحاولَ التَّفكيرَ في شيءٍ يقولُهُ. تصاعدَ مزيدٌ منْ هديرِ الرَّعدِ.

«هيَّا الآنَ، لا تبدا في إخباري انهُ ستحدثُ عاصفةٌ رعديّة،» حذرَتهُ الفيليجونكة. «ولا تقلْ أنَّ حشراتٍ تلكَ قدْ رحلَتْ أو أنَّه لا وجودَ لهَا، أو أنَّهَا صغيرةٌ جدًّا، أو لطيفةٌ جدًّا. هذَا كلُّهُ لنْ يساعدَنِي البتَّة.»

نظرَ سنفكين إليهَا مباشرَةً وقالَ: «هناكَ مكانٌ واحدٌ لا تقصدُهُ الحشراتُ أبدًا؛ المطبخُ، هيَ لا تدخلُ المطبخَ مطلقًا.»

«أواثقٌ كلَّ الثِّقةِ منْ هذَا؟» سألَتْهُ الفيليجونكة بصرامَةٍ.

«أَنَا مقتنعٌ بهذَا،» أجابَ سنفكين.

دوَّتْ جلجلةُ رعدٍ أخرَى، هذهِ المرَّةُ قريبةٌ جدًّا. نظرَ إلى الفيليجونكة وابتسَمَ. «على أيِّ حالٍ ستكونُ هناكَ عاصفةٌ رعديَّة،» قالَ.

بالفعلِ، كانَتْ هناكَ عاصفةٌ عاتيةٌ آتيةٌ منَ البحرِ. والبرقُ أبيضُ وبنفسجيٌّ، ولمْ يَسبقْ لسنفكين أنْ رأى ذاكَ العددَ الهائلَ منَ الوميضِ البديعِ دفعةً واحدةً. خِمارٌ فجائيٌّ جلَلَ الوادِي. رفعَتِ الفيليجونكة حاشيةَ تنورَتِهَا، وأسرعَتْ عائدةً عبرَ الحديقَةِ قفزًا ووثبًا، وأغلقَتْ بابَ المطبخِ وراءَهَا.

شمَّ سنفكين الهواءَ، أحسَّ أنَّهُ باردٌ كالفولاذ، ويفوحُ برائحَةِ كهرباءٍ. كانَ البرقُ يسقطُ بخطوطٍ عظيمةٍ مرتعشةٍ، أعمدةٌ متوازيةٌ منَ الضَّوءِ، والوادِي بأسرِهِ شعَّ بالوميضِ العامِي للبصرِ! قفزَ سنفكين ببهجةٍ وإعجابٍ. انتظرَ قدومَ الرِّياحِ والأمطارِ، إلَّا أنَّ شيئًا لمْ يأتِ. الرَّعدُ فقطْ هدرَ جيئةً وذهابًا بينَ قممِ الجبلِ؛ نطاقاتٌ ثقيلةٌ وهائلةٌ منَ الصَّوتِ، ورائحَةُ الاحتراقِ تفوحُ منْ كلِّ مكانٍ. أخيرًا سُمِعَ صوتُ تحطُّمٍ منتصرٍ ومُصِمٍّ، وخيَّمَ السُّكونُ، منْ دونِ ولا ومضَةِ برقٍ تاليةٍ.

تلكَ عاصفةٌ رعديَّةٌ عجيبةٌ، فكَّر سنفكين. أتساءَلُ أينَ ضربَتْ.

في تلكَ اللحظةِ سمعَ صيحةً رهيبةً عندَ منعطفِ النَّهرِ، فسرَتْ فيهِ قشعريرةٌ باردةٌ.

لقدْ صعقَ البرقُ الجدّ غرمبل!

عندمَا وصلَ إلَى هناكَ، رأَى الجدَّ غرمبل يقفزُ وينطُّ. «سمكةٌ! سمكةٌ!» كانَ يصيحُ وهوَ يحملُ بينَ يديهِ سمكةً فرخٍ. «اصطدتُ سمكةً!» وبدَا مهتاجًا من شدَّةِ الفرحِ. «أتظنُّ أنَّها يجبُ أنْ تُسلقَ أو تُقلَى؟» سألَهُ الجدُّ غرمبل. «أهناكَ موقدٌ لتدخينِهَا فيهِ؟ أهناكَ أيُّ شخصٍ يمكنُ أنْ يطبخَ هذهِ السَّمكةَ منْ غيرِ أنْ يفسدَهَا؟»

«الفيليجونكة!» قالَ سنفكين وضحكَ. «الفيليجونكة هيَ بالضَّبط الشَّخصُ المناسبُ للقيامِ بهذا!»

❃ ❃ ❃

حشرَتِ الفيليجونكة أنفًا مرتعشًا ومنتصبَ الشُّعيراتِ منْ شدَّةِ الفزعِ في فرجةِ البابِ. أدخلَتْ سنفكين إلى المطبخِ، وأغلقَتِ البابَ بالمزلاجِ. «أظنُّ أنَّني تخطّيتُ الأمرَ،» همسَتْ.

أومَأَ سنفكين برأسِهِ. أدركَ أنَّهَا لمْ تكن تشيرُ إلَى العاصفَةِ الرَّعديَّةِ. «اصطادَ الجدُّ غرمبل سمكَتَهُ الأولَى،» بدأَ. «والآنَ يقولُ الهيميولن إنَّ جماعةَ الهيميولن وحدَهم يعرفونَ كيفَ يطهونَ السَّمكَ. أهذا صحيحٌ؟»

«هذَا غيرُ صحيحٍ طبعًا!» هتفَتِ الفيليجونكة. «جماعةُ الفيليجونك وحدُهم يعرفونَ كيفَ يطهونَ السَّمكَ، والهيميولن يعلمُ ذلِكَ!»

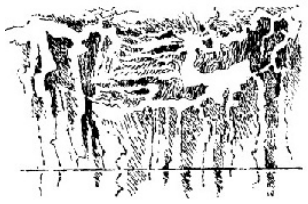

«لكنَّكِ لنْ تتمكَّني مطلقًا من جعلِهَا تكفي الجميعَ،» اعترضَ سنفكين بصوتٍ مغمومٍ.

«حقا! اتعتقدَ انني لا استطيعُ؟» واجَهَتْهُ الفيليجونكة وهيَ تختطِف منهُ سمكةَ الفرخ. «لا أودُّ إلَّا أنْ أرَى سمكةً لا يمكنُنِي جعلها تكفِي ستة أشخاص!» ثمَّ فتحَتْ بَابَ المطبَخَ وقالَتْ بحزمٍ: «عليكَ الرَّحيلُ الآنَ، يجبُ أنْ أبقَى وحدِي وأنَا أطبُخُ.»

«آهَا!» صاحَ الجدُّ غرميل الَّذي وقفَ وراءَ الباب يسترقُ السَّمعَ. «إنَّهَا تحبُّ الطَّبخَ علَى الرَّغمِ من كلِّ شيءٍ!»

أوقعَتِ الفيليجونكة السَّمكَةَ علَى الأرضيَّةِ.

«لكنْ أليسَ اليومُ عيدَ الآباءِ؟» غمغَمَ سنفكين.

«أأنتَ متأكِّدٌ؟» إستفسرَتِ الفيليجونكة باستنكارٍ. نظرَتْ بحدَّةٍ إلَى الجدِّ غرمبل وسألَتْهُ: «ألديكَ أيُّ ذريَّةٍ؟»

«بالتَّأكيدِ لَا،» أجابَ الجدُّ غرميل. «أنَا لا أحبُّ الأقاربَ! هناكَ بعضُ أحفادِ الأحفادِ في مكانٍ مَا، لكنَّنِي نسيتُهم.»

تنهَّدَتِ الفيليجونكة. «لماذَا لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يتصرَّفَ بطريقةٍ طبيعيَّةٍ،» همهمَتْ. «هذَا البيتُ سيصيبُنِي بالجنونِ. والآنَ ارحَلَا من هُنَا، سأعملُ علَى تحضيرِ الطَّعامِ.»

أغلقَتِ البابَ بالمزلاجِ والتقطَتِ السَّمكةَ. تحرَّتْ مطبخَ ماما مومين، ونسيَتْ كلَّ شيءٍ مَا عدَا الطَّريقةَ المثاليَّةَ لطبخِ سمكةٍ.

❃ ❃ ❃

خلالَ العاصفَةِ الرَّعديَّةِ العنيفَةِ والقصيرَةِ أصبحَتِ الميميل كهربائيَّةً تمامًا وقطعًا. الشَّراراتُ تطايرَتْ منْ شعرِهَا، وكلُّ شرارةٍ منهَا سرَتْ في وبرِ ذراعَيهَا وساقَيهَا وجعلَتِ الوبرَ يقفُ ويرتعِشُ. أنَا الآن باطشةٌ، قالَتْ لنفسِهَا. يمكنُنِي فعلُ أيِّ شيءٍ، بيدَ أنَّني لنْ أفعلَ شيئًا. أليسَ منَ الرَّائع ألَّا يفعلَ المرءُ إلَّا مَا يري أنَّهُ راغبٌ فِي فعلِهِ؟ تكوَّرَتْ علَى لحافِ الرِّيشِ وهيَ تشعرُ أنَّهَا مثلُ كرةِ برقٍ صغيرةٍ وامضةٍ.

✽ ✽ ✽

وقَفَ توفْت في حجرةِ التَّخزينِ ينظرُ عبرَ كوَّةِ السَّقفِ؛ رأَى وميضَ البرقِ ينهالُ على وادِي المومين وشعرَ بالفخرِ والاندفاعِ، وربَّمَا بشيءٍ منَ الفزعِ. هذِهِ عاصفتِي الرَّعديَّةُ، قالَ لنفسِهِ. أنَا أحدثْتُهَا. أخيرًا يمكنُنِي أنْ أصفَ الأشياءَ لنفسِي بحيثُ تصبحُ مرئيَّةً. وسأصفُ الأشياءَ لآخرِ التُّميَّاتِ ذاكَ، الشُّعوعيَّ الصَّغيرَ الَّذي ينتمِي إلى عائلةِ البروتوزا... أستطيعُ ابتداعَ هدير رعدٍ ووميضَ برقٍ. أنَا

التّوفْت الَّذي لا يعرفُ أحدٌ أيَّ شيءٍ عنهُ.

فكَّرَ أنَّهُ قدْ عاقبَ ماما مومِين الغائبةَ بعاصفتِهِ الرَّعديَّةِ، وقرَّرَ أنْ يبقَى في منتهَى الهدوءِ، وألَّا يقولَ أيَّ شيءٍ لأيِّ أحدٍ ما عدَاهُ هوَ وسليلِ النُّميَّاتِ ذاكَ. كهرباءُ الآخرينَ لا شأنَ لهُ بهَا، إنَّهُ يقدرُ على تحسِّسِهَا في الهواءِ بيدَ أنَّهَا لا تعنيه، فعاصفتُهُ الخاصَّةُ ملكُهُ لهُ وحدهُ. تمنَّى لو أنَّ الوادِيَ كانَ خاليًا منَ النَّاسِ وفيهِ متَّسعٌ وافرٌ للأحلامِ والتَّخيُّلاتِ، لأنَ المرءَ يحتاجُ إلى المساحةِ والسَّكينةِ ليكونَ قادرًا على تصميمِ الأشياءِ بعنايةٍ كافيةٍ.

ما زالَ الوطواطُ المتدلِّي منَ السَّقفِ نائمًا، لمْ يزعجْهُ الرَّعدُ قيدَ أنملةٍ.

ومنَ الحديقةِ تعالَى صوتُ الهيميولن مناديًا: «توفْت! تعالَ وساعدنِي!»

غادرَ توفْت حجرةَ التَّخزينِ. نزلَ إلى الهيميولنِ متواريًا بصمتِهِ وبشعرِهِ الأشعثِ، ولا أحد عرفَ أنَّهُ يحملُ عواصفَ كهربائيَّةً بينَ كفَّيهِ.

«رعدٌ، هَا؟» قالَ الهيميولن. «هل خفْتَ؟»

«لَا،» أجابَ توفْت.

13

موسيقَى

جهزَتْ سمكةُ الفيليجونكة في تمامِ السَّاعةِ الثَّانيةِ. كانَتْ مغمورةً بكميَّةٍ هائلةٍ منْ عصيدَةٍ حنطيَّةِ اللَّونِ والبخارُ يتصاعدُ منهَا. فاحَ المطبخُ بأكملِهِ برائحةِ طعامٍ مُشهيةٍ ومريحةٍ. لقَدْ أصبحَ المطبخُ مطبخًا حقًّا، غرفةً آمنةً حيثُ يمكنُ أنْ يتولَّى المرءُ مسؤوليتَهُ. قلبُ ألغازِ البيتِ ومنبعُ الثِّقةِ. لا حشراتٍ زاحفةٍ مخيفةٍ، لا عواصفَ رعديَّةٍ تستطيعُ الوصولَ إليهِ، والفيليجونكة فيهِ هيَ الآمرةُ النَّاهيةُ. تراجعَ الخوفُ ونوباتُ الإغماءِ إلَى أبعدِ زاويةٍ في دماغِهَا، وأحكِمَ الإقفالُ على ذلِكَ كلِّهِ بالمزلاجِ.

الحمدُ للهِ، قالَتْ لنفسِهَا. لا يمكنُنِي القيامُ بأيِّ تنظيفاتٍ ثانيةً، لكنَّنِي علَى الأقلِّ قادرةٌ علَى طبخِ الطَّعامِ. ما زالَ هناكَ أمَلٌ متبقٍ! فتحَتْ بابَ المطبخِ وخرجَتْ إلَى الشُّرفةِ، أنزلَتْ ناقوسَ ماما مومين النُّحاسيَّ اللمَّاعَ، حملَتْهُ بيديهَا ورأَتْ فيهِ انعكاسَ وجهِهَا الرَّاضِي والفخورِ. تناولَتِ المِضربَ ذا الرَّأسِ الخشبيِّ المستديرِ المغطَّى بجلدِ الشَّامواه وقرعَتِ النَّاقوسَ، «دونغ، دونغ»، فتردَّدَ صدَاهُ في الوادِي بأسرِهِ! «الطَّعامُ! تعالَوا لتأكلُوا!»

أقبلُوا بسرعةٍ وهم يصيحونَ: «ما الحكايةُ؟ ماذَا جرَى؟»

أجابَتِ الفيليجونكة بهدوءٍ: «الأكلُ أصبحَ جاهزًا.»

أُعِدَّتْ طاولةُ المطبخِ لستَّةِ أشخاصٍ، وكانَ مقعدُ الجدِّ غرميل عندَ رأسِ الطَّاولةِ. لمْ يغبْ عنِ الفيليجونكة أنَّهُ لبثَ واقفًا خارجَ النَّافذةِ قلقًا علَى سمكتِهِ. والآنَ سُمِحَ لهُ بالدُّخولِ.

«طعامٌ،» هتفتِ الميمبل. «هذا جيِّدٌ. مخللَ الخيارِ وبسكويْتُ الزَّنجبيلِ لا يتناسبَانِ معًا في الواقعِ.»

«منَ الآنَ فصاعدًا،» بدأَتِ الفيليجونكة، «ستُقفَلُ حجرةُ المؤنِ. المطبخُ يخصُّنِي وحدِي. هيَّا اجلسُوا وكلُوا قبلَ أنْ يبردَ الطَّعامُ.»

«أينَ سمكَتِي؟» استفسرَ الجَدُّ غرمبل.

إنَّهَا في قلبِ العصيدَةِ،» أجابَتِ الفيليجونكة.

«لكنَّنِي أريدُ أنْ أرَاهَا!» تذمَّرَ الجدُّ غرمبل. «كانَ ينبغِي أنْ تبقَى قطعةً واحدةً، ولكنْتُ أكلْتُهَا كلَّهَا وحدِي!»

«يَا إلهِي،» تذمَّرَتِ الفيليجونكة. «أعرفُ أنَّ اليومَ هوَ عيدُ الآباءِ، لكنَّ هذَا ليسَ سَبَبًا للتصرُّفِ بأنانيَّةٍ.» وبينَها وبينَ نفسِهَا فكَّرَتْ أنَّهُ في بعضِ الأحيانِ يصعبُ احترامُ كبارِ السِّنِّ، ويصعبُ الامتثالُ للتقاليدِ الَّتِي تتعلَّقُ بأساليبِ عيشٍ محترمٍ.

«أرفضُ الاحتفالَ بعيدِ الآباءِ،» أصرَّ الجدُّ غرمبل. «عيدُ الآباءِ وعيدُ الأمَّهاتِ، وعيدُ جميعِ المخلوقاتِ الصَّغيرَةِ اللطيفَةِ، أكرَهُ الأقاربَ! ألَا يمكنُنَا أنْ نحتفلَ بعيدِ السَّمكِ الكبيرِ كلِّهِ؟»

«لكنَّ هذَا طعامٌ حقيقيٌّ،» تدخَّلَ الهيميولن موبِّخًا. «ونحنُ نجلسُ هُنَا مثلَ عائلةٍ كبيرةٍ سعيدةٍ. لطَالَمَا قلْتُ إنَّ الفيليجونكة هيَ الوحيدةُ القادرةُ على طبخِ سمكَةٍ.»

«هَا، هَا، هَا،» استهزأَتِ الفيليجونكة. «هَا، هَا، هَا،» كرَّرَتْ وهيَ تنظرُ إلَى سنفكين.

تناولُوا الطَّعامَ بصمْتٍ. تنقَّلَتِ الفيليجونكة بينَ الموقِدِ والطَّاولَةِ وهيَ تخدمُهم، سكبَتْ لهم الليموناضَةَ، وأبدَتِ امتعاضَهَا منْ أيِّ واحدٍ منهم أسقطَ الطَّعامَ علَى نفسِهِ، وكانَتْ تضجُّ بالسَّعادةِ.

«أيمكنُ أنْ نشربَ ثلاثةَ أنخابٍ علَى شرفِ عيدِ الآباءِ؟» سألَ الهيميولن فجأةً.

«لنْ نفعلَ شيئًا منْ هذَا،» جابَهَهُ الجدُّ غرمبل.

«معذرة،» قالَ الهيميولن. «أحاولَ فقط انْ اكونَ لطيفا. السْنَا ننسَى انَّ بابا مومين هوَ أبٌ أيضًا؟» عاينَهُم بنظراتٍ جادَّةٍ وأضافَ: «عندي فكرةٌ؛ لماذَا لا يقم كلُّ واحدٍ منَّا بتحضيرِ مفاجأةٍ لبابَا مومين قبلَ أنْ يعودَ إلَى البيتِ؟»

لمْ يعلِّقْ أحدٌ بشيءٍ.

«يستطيعُ سنفكين أنْ يصلِّحَ رصيفَ كوخِ الاستحمامِ،» تابعَ الهيميولن. «والميمبلُ يمكنُ أنْ تغسلَ ثيابَنَا. وتتولَّى الفيليجونكة عمليَّةَ تنظيفاتِ ربيعٍ ممتازَةٍ...»

أسقطَتِ الفيليجونكة صحنَهَا على الأرضيَّةِ وصاحَتْ: «لَا، لَنْ أقومَ بالمزيدِ منْ أيِّ تنظيفٍ أبدًا!»

«لماذَا؟» سألَتْهَا الميمبل. «أنتِ تحبِّينَ التَّنظيفَ.»

«لا أتذكَّرُ،» غمغمَتِ الفيليجونكة.

«أنتِ محقَّةٌ تمامًا،» تدخَّلَ الجدُّ غرمبل. «علَى المرءِ أنْ يخرجَ جميعَ الأشياءِ غيرِ السَّارةِ مِنْ دماغِهِ. الآنَ سأذهَبُ وأصطادُ سمكةً أخرَى، وسآكلُهَا كلَّهَا وحدِي.» حملَ عصَاهُ وخرجَ، ومنديلُهُ مَا زالَ معلَّقًا حولَ رقبَتِهِ.

«شكرًا علَى الطَّعامِ،» قالَ توفْت وانحنَى لَهَا.

وقالَ سنفكين «تلكَ كانَتْ عصيدةً ممتازةً جدًّا.»

«أتظنُّ هذَا؟» أجابَتِ الفيليجونكة معَ ابتسامةٍ خفيفةٍ، لأنَّ أفكارَهَا انتقلَتْ إلَى مكانٍ آخرَ.

بعدَ العشاءِ أشعلَ سنفكين غليونَهُ ونزلَ إلَى البحرِ. سارَ ببطءٍ ولأوَّلِ مرَّةٍ شعرَ أنَّهُ وحيدٌ. مضَى مباشرةً إلى كوخِ الاستحمامِ وفتحَ بابَهُ الضيِّقَ الَّذي يصرُّ.

فاحَتْ هناكَ رائحة العفونةِ والأعشابِ البحريّةِ وفصولِ الصّيفِ المنصرمَةِ، رائحةٌ كئيبةٌ. آه يَا للبيوت، يَا للبيوتِ، فكّرَ سنفكين. جلسَ على الدَّرجِ الصَّغيرِ المَائلِ الّذي يؤدّي إلى المَاءِ. كانَ البحرُ هادئًا ورماديًّا ولا جزر مرئيَّة. ربَّمَا ليسَ منَ الصَّعبِ كثيرًا العثورُ على العائلة المختفية، وحثّها على العودة إلى بيتها. فخريطةُ البحرِ تُظهرُ الجزرَ كلّها. ويمكنُ جعلُ الزَّورقِ مانعًا لتسرُّبِ المَاءِ. لكنْ لمَاذا؟ قالَ سنفكين لنفسِهِ. يجدرُ بنَا أنْ ندعَهم وشأنَهم. لعلَّهم همْ أيضًا يريدونَ أنْ يُترَكُوا بسلامٍ.

تخلَّى سنفكين عن استرجاعِ نوتاتِهِ الخمسةِ، يجبُ أنْ يمنحها حريَّةَ العودةِ عندمَا ترغبُ في ذلِكَ. هناكَ على أيِّ حالٍ أنغامٌ أخرَى، فكّرَ. وقدْ أعزفُ قليلًا هذَا المساءَ.

كانُوا في فترةٍ متأخِّرةٍ منَ الخريفِ، والأمسياتُ غدَتْ حالكةَ السَّوادِ. لمْ تحبَّ الفيليجونكة قطّ أوقاتَ الليلِ. لا شيءَ أسوأَ منَ الحملقَةِ في ظلمةٍ دامسةٍ، إنَّ ذلِكَ مثلَ المشي مباشرةً إلى الأبديَّةِ منْ غيرِ رفقَةٍ. وهذَا هوَ سببُ إخراجِهَا دلوِ القمامَةِ وتركِهِ على درجِ المطبخِ بسرعةٍ مضاعفةٍ، وإحكامِ إغلاقِ البابِ ثانيةً. ذلِكَ مَا درجَتْ على فعلِهِ دائمًا.

لكنْ في تلكَ اللَّيلةِ وقفَتِ الفيليجونكة علَى الدَّرجِ، وأرهفَتِ السَّمعَ في العتمَةِ. كانَ سنفكين يعزفُ في خيمَتهِ، لحنًا جميلًا وغامضًا. وعلى الرّغمِ منْ أنّه لم يبدُ لها ولا لأي أحدٍ آخر أنها صاحبة حسّ موسيقي، استمعَتْ بلهفةٍ، نسيَتِ الأشياءَ الفظيعَةَ كلّها. وضوءُ المطبخِ انعكسَ عليهَا وأظهرَ معالمَهَا الطويلَةَ والنَّحيلةَ؛ فريسةٌ سهلةٌ لأخطارِ الليلِ المتربِّصةِ. إلّا أنَّ شيئًا لمْ يحدثْ. عندمَا انتهَتِ المعزوفةُ تنهَّدَتْ بعمقٍ، وضعَتِ الدَّلوَ أرضًا، ودخلَتْ إلى البيتِ. توفت هوَ منْ أفرغَ الدَّلوَ.

في حجرةِ التَّخزينِ قالَ توفت لنفسِهِ: المخلوقُ تكوَّرَ وكمنَ عندَ البركةِ الكبيرةِ وراءَ حوضِ تيغ بابا مومين، وهوَ ينتظرُ هناكَ، ينتظرُ إلى أنْ يصبحَ كبيرًا جدًّا وقويًّا بحيثُ لا يصابُ أبدًا بخيبةِ أملٍ، وإلى ألّا يكترثَ لأحدٍ سوى نفسِهِ... نهايةُ الفصلِ.»

14

تقصّي أحوال العائلةِ

كانَ منَ البديهيِّ أنْ يمتنعَ أيٌّ منهم عن النَّومِ في غرفةِ ماما مومين أو غرفةِ بابا مومين. ولأنَّ ماما مومين كانتْ مولعةً بفتراتِ الصَّباحِ واجهتْ غرفتُهَا الشَّرقَ، وواجهتْ غرفةُ بابا مومين الغربَ لأنَّ سماءَ المساءِ لطالمَا جعلتْهُ يشعرُ بالتَّوقِ.

في غسقِ أحدِ الأيَّامِ تسلَّلَ الهيميولن إلى غرفةِ بابا مومين، ووقفَ وقفةَ احترامٍ عندَ مدخلِ البابِ. كانتْ غرفةً صغيرةً ذاتَ سقفٍ مائلٍ، مكانٌ يمكنُ أنْ يختليَ المرءُ بنفسِهِ فيهِ. وأيضًا مكانٌ يمكنُ أنْ يكونَ المرءُ نفسَهُ فيهِ، مهمَا بدَا هذَا غريبًا. على الحيطانِ الزَّرقاءِ علَّقَ بابا مومين أغصَانًا غريبةَ الأشكالِ، وألصقَ أزرارَ بنطلوناتٍ على بعضِهَا. كانَ هناكَ تقويمٌ وفيهِ صورةُ حطامِ سفينةٍ، وقطعةُ لوحٍ خشبيٍّ فوقَ السَّريرِ كُتبَ فيها: «ويسكي هيغ». على المنضدةِ بعضُ الأحجارِ العجيبةِ، وكتلةُ ذهبٍ وأكوامٌ منَ النَّثريَّاتِ الَّتي يخلِّفُهَا المرءُ وراءَهُ في الدَّقيقةِ الأخيرةِ عندمَا يسافرُ في رحلةٍ. تحتَ المرآةِ نموذجُ منارةٍ ذاتِ سقفٍ مدبَّبٍ، لهَا بابُ فسيفساءٍ صغيرٌ، ودرابزينٍ منَ المساميرِ النُّحاسيَّةِ حولَ حجرةِ المصباحِ. بلْ كانَ هناكَ أيضًا سلَّمٌ صنعَهُ بابا مومين مِنْ سلكٍ نحاسيٍّ، وعلى النَّوافذِ ألصقَ ورقًا فضيًّا.

تأمَّلَ الهيميولن هذهِ الأشياءَ وحاولَ أنْ يتذكَّرَ كيفَ بدَا بابا مومين. حاولَ أنْ يتذكَّرَ مَا فعلاهُ معًا وعنْ أيِّ شيءٍ تحدَّثَا، إلَّا أنَّهُ لمْ يستطعْ. بعدئذٍ قصدَ النَّافذةَ ونظرَ إلى الحديقةِ. لمعَتِ الأصدافُ المحيطةُ بأحواضِ الزُّهورِ الذَّابلةِ في الغسَقِ، وفي الجهةِ الغربيَّةِ بدَتِ السَّماءُ صفراءُ، وشجرةُ القيقبِ الضَّخمةُ ظهرَتْ فاحمةَ السَّوادِ في الغروبِ – وقفَ الهيميولن ينظرُ إلى مَا درجَ بابا مومين على النَّظرِ إليهِ بالضَّبطِ في الغسقِ الخريفيِّ.

تمّ على حين غرّةٍ عرف الهيميولن ما يرغبُ في فعلِهِ، سيبني بيتًا لبابَا مومين في شجرةِ القيقبِ الضّخمةِ! أبهجَتْهُ الفكرةُ كثيرًا إلى درجةِ أنّهُ شرعَ يضحكُ! بيتٌ على شجرةٍ، طبعًا! عالٍ فوقَ الأرضِ بينَ الأغصانِ القاتمةِ المتينةِ، بعيدًا عن العائلةِ. حرٌّ ومتوهِّجٌ بروحِ المغامرةِ، معَ فانوسٍ مخصَّصٍ للعواصفِ على السّطحِ؛ وهناكَ يمكنُ أنْ يجلسَ ويستمعَ إلى الرّياحِ الجنوبيّةِ الغربيّةِ تخبطُ الجدرانَ، ويتبادلا الحديثَ أخيرًا. اندفعَ الهيميولن إلى الرّواقِ وصاحَ: «توفت!»

خرجَ توفْت منْ حجرةِ التّخزينِ.

«أكنتَ تقرأُ منْ جديدٍ؟» سألَهُ الهيميولن. «الإفراطُ في القراءةِ خطرٌ. اسمعْ، أتستسيغُ نزعَ المساميرِ؟ هَا؟»

«لَا أعتقدُ ذلِكَ،» أجابَ توفْت.

«إذَا أردْنَا إنجازَ أيِّ شيءٍ،» انبرَى الهيميولن يفسِّرُ، «يتولّى شخصٌ البناءَ، ويتولّى شخصٌ آخرُ حملَ الألواحِ، أو يدقُّ شخصٌ مساميرَ جديدةً، والشّخصُ الآخرُ ينتزعُ المساميرَ القديمةَ. أتفهمُنِي؟»

اكتفَى توفْت بالنّظرِ إليهِ. أدركَ أنّهُ سيقومُ بمهمّةِ الشّخصِ الآخرِ.

نزلَا إلى كوخِ الحطَبِ، وبدأَ توفْت ينتزعُ المساميرَ. كانَتْ ألواحُ الخشبِ الّتي جمعَتْهَا العائلةُ منَ الشّاطئِ قديمةً، والخشبُ الرّماديُّ كانَ قاسيًا ومضغوطًا والمساميرُ صدِئَةً. يمّمَ الهيميولن شجرةَ القيقبِ، ووقفَ ينظرُ إلى قمّتِهَا وهوَ يمعنُ التّفكيرَ.

خلخلَ توفْت المساميرَ وسحبَهَا. اصطبغَ الجوُّ ساعةَ الغروبِ بصفرةٍ ناريّةٍ قبلَ مغيبِ الشّمسِ بالضّبطِ. حدّثَ نفسَهُ عنِ المخلوقِ، وأصبحَ يفعلُ ذلِكَ بمزيدٍ منَ المهارَةِ، ليسَ بالكلماتِ ولكنْ بالتّصوّراتِ. الكلماتُ خطرةٌ، والمخلوقُ قدْ وصلَ إلى نقطةٍ حيويّةٍ في تطوّرِهِ، كانَ علَى وشكِ أنْ يتغيّرَ وما عادَ يخفِي نفسَهُ، بلْ كمَنَ يراقبُ ويستمعُ، وقدْ تسلّلَ مثلَ ظلِّ قاتمٍ إلى طرفِ الغابَةِ، بحرصٍ شديدٍ، وليسَ خائفًا أبدًا...

«أيروقُ لكَ انتزاعُ المساميرِ؟» سألَتْهُ الميمبل منْ ورائِهِ. كانَتْ جالسةً علَى منصّةِ التّحطيبِ.

«ماذَا؟» استفهمَ توفْت.

«انتِ لا تحبّ انتزاعَ المساميرِ، ومعَ ذلِكَ تفعلُ هذا،» قالتِ الميمبل. «اتساءَلُ لماذَا؟»

نظرَ إليهَا توفْت وبقِيَ صامتًا. فاحَتْ رائحَةُ الميمبل بالنَّعنعِ البريِّ.

«وأنتَ لا تستلطِفُ الهيميولن أيضًا،» تابعَتْ.

«مَا فكَّرْتُ في هذَا قطُّ،» غمغَمَ توفْت باستهجانٍ، وعلَى الفورِ بدأَ يفكِّرُ أيحبُّ الهيميولن أو لَا يحبُّهُ.

غادرَتِ الميمبل منصَّةَ التَّحطيبِ قفزًا ورحلَتْ. ازدادت عتمة الغسقِ فجأةً، وتصاعدَ فوقَ النَّهرِ سديمٌ رماديٌّ، كانَ الجوُّ قارسَ البردِ.

«افتحِي لِي،» صاحَتِ الميمبل خارجَ بابِ المطبخِ. «أريدُ أنْ أتدفَّأَ في مطبخِكِ.»

كانَتْ تلكَ أوَّلُ مرَّةٍ يقولُ فيهَا أحدٌ مَا «مطبخَكِ» وبالتَّالِي فتحَتِ الفيليجونكة البابَ في الحالِ. «يمكنُكِ أنْ تجلسِي علَى سريري، ولكن انتبهِي لئلَّا تجعدِي الغطاءَ.»

تكوَّرتِ الميمبل علَى السَّريرِ الَّذي كانَ قدْ دُفعَ بينَ الموقدِ والحوضِ، وواصلَتِ الفيليجونكة صنعَ ثريدِ الخبزِ من أجلِ اليومِ التَّالِي. عثرَتْ في كيسٍ علَى كسَرِ خبزٍ يابسٍ احتفظَتْ بهَا العائلَةُ لإطعامِ الطُّيورِ. كانَ المطبخُ دافئًا، والنَّارُ طقطقَتْ في الموقِدِ، باعثَةً ظلالًا راقصَةً علَى السَّقفِ.

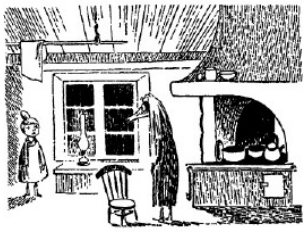

«في هذهِ اللحظةِ تبدُو الحالُ كسابقِ عهدِهَا،» غمغمَتِ الميمبل.

«أتعنِينَ كمَا كانَتْ في أيَّامِ مامَا مومين؟» استفهمَتِ الفيليجونكة تحرِّيًا للدِّقَّةِ، إنَّمَا منْ غيرِ أنْ تفكرَ.

«لا، ابدًا،» اجابَتِ الميمبل. «اعنِي الموقدَ فقط.»

تابعَتِ الفيليجونكة تحضيرَ ثريدِ الخبزِ، وهيَ تذهبُ وتجيءُ في المطبخِ بحذائِهَا ذي الكعبِ العالي، وعلى حينِ غرَّةٍ أصبحَتْ أفكارُهَا مشوَّشةً وغيرَ متيقّنةٍ. «مَاذَا تعنينَ؟» سألَتْ.

«كانَتْ ماما مومين تصفِّرُ وهيَ تطبخُ،» ردَّتِ الميمبل. «كلُّ شيءٍ جرَى ببساطةٍ مهمَا اختلفَتِ الأحوالُ... أوه لا أدري – ذلكَ مختلفٌ. أحيانًا درجُوا علَى أخذِ طعامِهِم، والذّهابِ إلى مكانٍ ما، وأحيانًا لمْ يأكلُوا مطلقًا...» ثمَّ وضعَتْ ذراعَهَا فوقَ رأسِها كي تنامَ.

«أودُّ أنْ أتصوَّرَ أنَّني أعرفُ ماما مومين أفضلَ ممَّا تعرفينَها،» علَّقَتِ الفيليجونكة. دهنَتْ صَفيحةَ الخبزِ بالسَّمنِ، ألقَتْ فيها بقايا الحساءِ منَ اليومِ السَّابقِ، وأضافَتْ خلسةً بعضَ البطاطِسِ المسلوقةِ الَّتي ما عادَتْ كمَا كانَتْ في يومٍ مَا؛ غدَتْ أكثرَ فأكثرَ تشوُّشًا، وفي النِّهايةِ اندفعَتْ نحوَ الميمبل النَّائمةِ وصاحَتْ: «ما كنْتِ لتستلقي هُنَا لو عرفْتِ مَا أعرفُ!»

صحَتِ الميمبلُ من غفوتِهَا، ولبثَتْ بِلا حراكٍ تنظرُ إلَى الفيليجونكة.

«لا فكرةَ لديكِ،» همسَتِ الفيليجونكة بصوتٍ حازمٍ. «لا فكرةَ لديكِ مَا الَّذي أُطلِقَ سراحُهُ في هذَا الوادِي! أشياءُ فظيعةٌ أُخرِجَتْ منْ خزانةِ الثِّيابِ في الأعلَى وهيَ الآنَ في كلِّ مكانٍ!»

اعتدلَتِ الميمبلُ في السَّريرِ وسألَتْهَا: ألهذَا تلفِّينَ جزمتَكِ بمصيدَةِ الذُّبابِ؟» تثاءبَتْ وفركَتْ أنفَهَا. قامَتْ وعندَ مدخلِ البابِ التفتَتْ وأردفَتْ: «لَا تثيرِي

ضجَّةً، لا شيءَ هُنَا أسوأ منَّا نحنُ.»

«أهيَ غاضبةٌ؟» اِستفهمَ الجدُّ غرمبل منْ غرفةِ الجلوسِ.

«هيَ خائفةٌ» ردّتِ الميمبل وصعدَتْ إلى الطابقِ العلويِّ. «خائفةٌ منْ شيءٍ في خزانَةِ الثِّيابِ.»

خيَّمَ الظَّلامُ في الخارجِ. واعتادُوا كلُّهم علَى الذَّهابِ إلى النَّومِ معَ حلولِ الظَّلامِ، وناموا فتراتٍ طويلةً، وأكثرَ طولًا معَ مرورِ الأيَّامِ. تسلَّلَ توفت كظلٍّ، وتمتمَ متمنيًّا لهم ليلةً هانئةً، والهيميولن أدارَ أنفهُ نحوَ الجدارِ. قرَّرَ أنْ يبنيَ قبَّةً علَى قمَّةِ بيتِ شجرةِ بابَا مومين. يمكنُهُ أنْ يطليَهَا باللونِ الأخضرِ، وقدْ يزخرفُهَا بنجومٍ ذهبيَّةِ اللونِ. علَى العمومِ هناكَ بعضُ الطِّلاءِ الذَّهبيِّ في دُرجِ منضدةِ ماما مومين، وسبقَ لهُ أنْ رأى صفيحةَ طلاءٍ برونزيٍّ في كوخِ الحطبِ.

عندمَا نامَ الجميعُ، ارتقَى الجدُّ غرمبل الدَّرَجَ ومعَهُ شمعةٌ. وقفَ خارجَ خزانةِ الثِّيابِ الكبيرةِ وهمسَ: أنتَ هناكَ؟ أعرفُ أنَّكَ هناكَ.» فتحَ الخزانةَ بلطفٍ بالغٍ، فتأرجَحَ بابُ المرآةِ وفُتِحَ.

كانَتْ شعلةُ الشَّمعةِ ضئيلةً جدًّا، ولمْ ينتجْ عنهَا إلَّا ضوءٌ كليلٌ في البهوِ، ومعَ ذلِكَ استطاعَ الجدُّ غرمبل أنْ يرَى السَّلَفَ بوضوحٍ أمامَهُ. كانَ يعتمرُ قبَّعةً ويحملُ عصًا، وبدَا منظرُه عصيًّا علَى التَّصديقِ. رداءُ نومِهِ طويلٌ جدًّا، وينتعلُ خفًّا جلديًّا. لكنَّه بلا نظَّاراتٍ. تقدَّمَ الجدُّ غرمبل خطوةً وفعلَ السَّلَفُ الشَّيءَ نفسَهُ.

«إذًا ما عدْتَ تعيشُ في المدفأةِ» قالَ الجدُّ غرمبل. «كم عمرُكَ؟ ألَا تضعُ نظَّاراتٍ أبدًا؟» كانَ متحمِّسًا جدًّا، وراحَ يضربُ الأرضيَّةَ بعصاهُ ليضفيَ الأهميَّةَ علَى ما يقولُهُ. والسَّلَفُ فعلَ مثلَهُ، بيدَ أنَّهُ لمْ يجبْ.

«إنَّهُ أصمٌّ» قالَ الجدُّ غرمبل لنفسِهِ. «كيسٌ عتيقٌ منَ العظامِ وأصمٌّ كالحجرِ. لكنْ علَى أيِّ حالٍ منَ اللَّطيفِ أنْ أقابلَ أحدًا يعرفُ ماهيَّةَ شعورِ المرءِ بكبرِ السِّنِّ.» بقيَ حيثُ هوَ يحدِّقُ في السَّلَفِ مدَّةً طويلةً، وفعلَ السَّلَفُ مثلَهُ، ثمَّ افترقَا وكلٌّ منهمَا يُكنُّ للآخرِ مشاعرَ الاحترامِ والتَّقديرِ.

15

سليلُ النُّميَّاتِ

أصبحَتِ الأيَّامُ أقصرَ وأشدَّ بردًا. لمْ تمطرِ السَّماءُ كثيرًا جدًّا، والشَّمسُ أشرقَتْ على الوادي لفترةٍ قصيرةٍ يوميًّا، والأشجارُ العاريةُ ألقَتْ ظلالَهَا على الأرضِ، لكنْ في الصَّباحِ والمساءِ يهمُدُ كلُّ شيءٍ في شبهِ الضَّوءِ ثمَّ يُقبلُ اللَّيلُ. لمْ يلمحُوا الشَّمسَ تغربُ قطُّ، شاهدُوا فقطْ وهجَ الغروبِ الأصفرِ في المدَى، وحولَ خطوطِ الجبالِ الحادَّةِ على مدارِ المنطقَةِ – بدَا ذلِكَ مثلَ العيشِ في بئرٍ.

شُغِلَ الهيميولن وتوفْت في بناءِ بيتِ الشَّجرةِ لبَابا مومين. والجدُّ غرمبل اصطادَ سمكتَين يوميًّا والفيليجونكة بدأتْ تصفِّرُ.

كان خريفًا بلا عاصفَةٍ، والعاصفةُ الرَّعديَّةُ الهائلةُ لمْ تتكرَّرْ، بقيَتْ تتوالَى من بعيدٍ مصحوبةً بقعقعَةٍ واهيةٍ، وجعلَتِ السُّكونَ في الوادي يبدُو أكثرَ عمقًا. توفْت وحدُهُ عرفَ أنَّهُ كلَّمَا هدرَ الرَّعدُ كَبُرَ المخلوقُ وتخلَّى قليلًا عنْ شيءٍ منْ تحفُّظِهِ. لقد أصبحَ معتدلَ الحجمِ وتغيَّرَ كثيرًا، واستطاعَ فتحَ فمِهِ وأظهرَ أسنانَهُ. وذاتَ مساءٍ في كنَفِ ضوءِ الغروبِ الأصفرِ انحنَى المخلوقُ فوقَ الماءِ، ورأَى أسنانَه البيضَاءَ لأوَّلِ مرَّةٍ. فتحَ فمَهُ وتثاءَبَ، ثمَّ أطبقَهُ بقوَّةٍ وصرَّ بأسنانِهِ برهةً وهوَ يفكِّرُ: «أنَا الآنَ لسْتُ بحاجةٍ إلى أحدٍ؛ لديَّ أسنانٌ.»

في النِّهايَةِ مَا عادَ توفْت يجرؤُ علَى جعلِ المخلوقِ أكبرَ حجمًا. عملَ علَى محوِ تصوُّراتِهِ كلَّهَا، إلَّا أنَّ الرَّعدَ استمرَّ يهدرُ فوقَ البحرِ، وانتابَ توفْت شعورٌ بأنَّ المخلوقَ صارَ يكبرُ وحدَهُ.

صعبَ علَى توفْت أنْ ينامَ في اللَّيلِ منْ غيرِ أنْ يقصَّ علَى نفسِهِ حكايَةً مَا، لأنَّهُ داومَ علَى فعلِ ذلِكَ فترةً طويلةً جدًّا. قرأَ وقرأَ في كتابِهِ وما استوعبَهُ

قلّ وقلّ. أصبحَ الكتابُ يتحدّث عمّا يبدو عليهِ تركيبُ المخلوقِ منَ الدّاخلِ، وكانَ ذلِكَ مملًّا.

في مساءِ يومٍ دقَّتِ الفيليجونكة علَى بابِ حجرَةِ التَّخزينِ، فتحَتْهُ بحذرٍ وقالَتْ: مرحبًا أنتَ هُناكَ!»

رفعَ توفْت عينيهِ منَ الكتابِ وانتظرَ.

تربَّعَتِ الفيليجونكة الجسيمة علَى الأرضيَّةِ قربَهُ، أمالَتْ رأسَهَا وقالَتْ: «ماذَا تقرأُ؟»

«مجرَّدُ كتابٍ،» أجابَ توفْت.

أخذَتِ الفيليجونكة نفسًا عميقًا وغامرَتْ بالقولِ: «ليس سهلًا دائمًا أنْ يكونَ المرءُ صغيرًا جدًّا ولا أمَّ لديهِ، أليسَ كذلِكَ؟»

تكوَّمَ توفْت على نفسِهِ حيثُ يجلسُ. انتابَهُ الحياءُ منهَا ولمْ يجبْ.

مدَّتِ الفيليجونكة يدَهَا ثمَّ أعادَتْهَا. قالَتْ بمنتهَى الصِّدقِ: «مساءَ أمسِ فكَّرتُ فيكَ فجأةً. ذكّرْنِي باسمِكَ؟»

«توفْت،» أجابَ توفْت.

«توفْت،» كرَّرَتِ الفيليجونكة. «اسمٌ جميلٌ.» بحثَتْ بيأسٍ عنْ كلامٍ تقولُهُ، وتمنَّتْ لو أنَّهَا تحبُّ الأطفالَ وتعرفُ المزيدَ عنهم. في النِّهايةِ قالَتْ: «أأنْتَ دافئٌ جيِّدًا؟ أأنْتَ علَى ما يرام هُنَا؟»

«نعم، شكرًا،» ردَّ توفْت.

حاولَتِ الفيليجونكة أنْ تنظرَ مباشرةً في عينيهِ وسألَتْهُ بإصرارٍ: «أنْتَ متأكِّدٌ؟»

تراجعَ توفت إلى الوراءِ قليلا، شمّ راحة الخوفِ تفوحُ منهَا. فقالَ بسرعةٍ: «لحافًا ربّما.»

قامتِ الفيليجونكة فورًا. «وسآتيكَ بواحدٍ،» هتفَتْ. «انتظرْنِي، لنْ أستغرقَ دقيقةً.»

سمعهَا تجرِي نزولًا علَى الدَّرجِ وتعودَ ومعَهَا لحافٌ.

«شكرًا جزيلًا،» شكرَهَا توفْت وانحنَى لهَا. «هذا لحافٌ جيِّدٌ جدًّا.»

ابتسمَتِ الفيليجونكة. «أوه، إنَّهُ شيءٌ لا يستحقُّ الذِّكرَ!» قالَتْ. «كانَتْ ماما مومين ستفعلُ الشَّيءَ نفسَهُ.» ألقَتِ اللِّحافَ علَى الأرضيَّةِ، تريَّثَتْ قليلًا، ثمَّ غادرَتْ.

طوَى توفْت اللِّحافَ بقدرِ مَا استطاعَ منْ ترتيبٍ ووضعَهُ علَى الرَّفِّ، ثمَّ زحفَ إلى شبكةِ البركةِ وجاولَ متابعةَ القراءةِ. لمْ يُجدِ ذلِكَ نفعًا. قلَّ وقلَّ ما أستوعبَهُ، وقرأَ الجملةَ نفسَهَا عدَّةَ مرَّاتٍ منْ غيرِ أنْ يستوعبَ ماذَا يقرأُ. في النِّهايَةِ وضعَ الكتابَ أرضًا، وأطفأَ شمعَتَهُ وخرجَ.

لمْ يكنْ سهلًا العثورُ علَى الكرةِ البلوريَّةِ. أخطأَ في وجهتِهِ، وتخبَّطَ في الأنحاءِ بينَ جذوعِ الأشجارِ كمَا لو أنَّ الحديقةَ كانَتْ مكانًا غريبًا عنهُ. أخيرًا ظهرَتْ لهُ الكرةُ البلوريَّةُ منَ حنايَا الظَّلامِ، لكنَّ وهجَهَا الأزرقَ مختفٍ، وبدَتْ مفعمةً بالضَّبابِ، ضبابٌ ثخينٌ وقاتمٌ وليسَ بأيِّ حالٍ أفتحَ منْ تلكَ الليلةِ نفسِهَا في داخلِ الكرةِ السِّحريَّةِ تصاعدَ الضَّبابُ بسرعةٍ، اختفَى، امتصَّتْهُ البلورةُ، ثمَّ في أعماقِهَا لفَّ ودوَّمَ مزيدٌ منَ الضَّبابِ علَى شكلِ لوالبَ داكنةٍ.

تتبَّعَ توفْت ضفَّةَ النَّهرِ واجتازَ حوضَ تبغِ بابا مومين. وعندَ البركةِ الكبيرةِ تسلَّلَ بينَ أشجارِ التِّنوبِ، وأعوادِ القصبِ الذَّابلَةِ حفَّتْ في جميعِ الاتِّجاهاتِ، وغاصَ حذاؤُهُ في الأرضِ الموحلةِ.

«أنتَ هناكَ؟» نادَى بصوتٍ منخفضٍ. «أيُّهَا المخلوقُ الصَّغيرُ كيفَ حالُكَ؟» عندئذٍ زمجرَ المخلوقُ عليهِ منْ بينِ ستارِ الظَّلامِ.

مفجوعًا منْ هولِ الرُّعبِ، ابتعدَ توفْت باندفاعٍ عشوائيٍّ، وهوَ يتعثَّرُ ويقعُ وينهضُ ثانيةً إلى أنْ وصَلَ إلى الخيمَةِ. كانَتْ تشعُّ مثلَ ضوءٍ أخضرَ هادئٍ في الليلِ. في داخلِهَا سنفكين يعزفُ لنفسِهِ برقةٍ.

«هذا انا،» همسَ توفت ودخلَ الخيمَة التي لمْ يسبق لهَ قط انْ دخلهَا. فاحَتْ فيهَا رائحةٌ طيِّبةٌ، مزيجٌ منْ تبغ الغليونِ والتُّربةِ. وقربَ كيسِ النَّومِ شمعةٌ علَى علبةِ سُكَّرٍ والأرضُ مغطَّاةٌ ببقايا الخشَبِ.

«ستصبحُ هذهِ ملعقةٌ خشبيَّةٌ،» قالَ سنفكين. «أثمَّةَ مَا أفزعَكَ؟»

«ما عادَتْ هناكَ أيُّ عائلةٍ،» أجابَ توفْت. «لقدْ خيَّبُوا أملِي.»

«»لا أعتقدُ هذَا،» قالَ سنفكين. «لعلَّهم يريدونَ فقط أنْ يُترَكُوا بسلامٍ لبعضِ الوقتِ.» ثمَّ تناولَ القارورةَ الحافظَةَ للحرارةِ وصبَّ منهَا الشَّايَ في كوبَينِ. «السُّكَّرُ هناكَ،» أشارَ. «منَ المؤكَّدِ أنَّهم سيعودُونَ إلى البيتِ في وقتٍ مَا.»

«في وقتٍ مَا!» هتفَ توفْت. «يجبُ أنْ تعودَ الآنَ، هيَ المخلوقةُ الوحيدةُ الَّتي تهمُّنِي!»

هزَّ سنفكين كتفَيهِ، أعدَّ شطيرتين وقالَ: «إنِّي لأتساءلُ مَا هوَ الَّذي تهتمُّ بهِ ماما مومين...»

لمْ ينبسْ توفْت بالمزيدِ. وبينَمَا هوَ يغادرُ قالَ سنفكين منْ ورائهِ: «عليكَ أنْ تحذرَ منْ جعلِ الأشياءِ تغدُو كبيرةً جدًّا.» وبعدَ ذلكَ، تعالَى صوتُ الهارمونيكَا وغمرَ الوادِي. والفيليجونكة وقفتْ علَى درجِ المطبخِ وإلَى جانبهَا دلو القمامةِ واستمعَتْ. قامَ توفْت بالمناورَةِ منْ حولهَا، وتسلَّلَ خلسةً إلى البيتِ.

16

نزهةٌ

دُعِيَ سنفكين إلى وجبة طعام يوم الأحدِ في اليومِ التَّالي. كانَتِ السَّاعةُ تشيرُ إلى الثَّانيةِ والرُّبعِ والفيليجونكة لَمْ تستدْعِهم إلى الطَّاولةِ بعدُ. عندمَا بلغَتِ السَّاعةُ الثَّانيةَ والنِّصفَ وضعَ سنفكين ريشةً جديدةً في قبَّعتِهِ وذهبَ ليرَى مَا الحكاية. رأى طاولةَ المطبخِ مستقرَّةً عندَ الدَّرجِ والهيفيولن وتوفْت يخرجَانِ الكراسي.

«إنَّها نزهةٌ،» علَّقَ الجدُّ غرمبل بصوتٍ محبطٍ. «تقولُ إنَّ اليومَ هوَ اليومُ الَّذي يجبُ أنْ نفعلَ فيهِ ما يحلُو لَنَا.»

ظهرَتِ الفيليجونكة وهيَ تحمِلُ الطَّعامَ؛ كانَ عصيدةَ شوفانٍ. هبَّتْ خلالَ الوادِي ريحٌ باردةٌ ولكنْ لطيفةٌ، بيدَ أنَّهَا جمَّدَتْ سطحَ العصيدَةِ مشكِّلةً عليهَا قشرةً.

«هيَّا تفضَّلِ الآنَ ولا تخجلْ،» قالَتِ الفيليجونكة لتوفْت وربَّتَتْ رأسَهُ.

«ما الدَّاعيَ لأنْ نأكلَ في الخارجِ؟» تذمَّرَ الجدُّ غرمبل. أزاحَ القشرةَ السَّطحيَّةَ جانبًا من صحنِهِ.

«عليكَ أنْ تأكلَ هذهِ أيضًا،» أشارَتِ الفيليجونكة.

«ما المانعُ منْ أنْ نأكلَ في المطبخِ؟» قالَ الجدُّ غرمبل.

«احيانا يفعلَ المرءُ مَا يخطرُ على بالِهِ. قدْ ياخذِ المرءُ الطعامَ ويذهبُ في نزهةٍ بصحبةِ غيرِهِ، أو ربَّما قدْ لا يأكلُ أيَّ شيءٍ على الإطلاقِ... هذا مسلٍ.»

كانَتِ الطَّاولةُ مائلةً علَى الأرضِ غيرِ المستويَةِ. حملَ الهيميولن صحنَهُ بيدَيهِ. «هناكَ شيءٌ يزعجُنِي،» قالَ. «بناءُ القبَّةِ لا يسيرُ سيرًا حسنًا. ينشرُ توفْت الخشبَ وفقَ تعليماتِي ومعَ ذلِكَ لا تكونُ النَّتيجةُ صحيحةً. عندمَا تنشرُ اللوحَ أكثرَ بقليلٍ جدًّا، يصبحُ قصيرًا ويسقطُ. أترونَ مَا أعنِي؟»

«ماذَا عنْ بناءِ سقفٍ عاديٍّ؟» اقترحَ سنفكين.

«ذاكَ سيسقطُ أيضًا،» قالَ الهيميولن.

«أكرهُ الطَّبقةَ المتشكِّلةَ علَى عصيدةِ الشُّوفانِ،» تشكَّى الجدُّ غرمبل.

«هناكَ طبعًا احتمالٌ آخرُ،» تابعَ الهيميولن. «أَلَّا أبنِيَ سقفًا علَى الإطلاقِ! كنْتُ أجلسُ هُنَا وأفكِّرُ فِي أنَّ بابا مومين قدْ يفضِّلُ أنْ يتأمَّلَ النُّجومَ. ألَا تظنُّونَ أنَّهُ يفضِّلُ تأمُّلَ النُّجومِ؟»

فجأةً صاحَ توفْت بعصبيَّةٍ: «هذَا مَا يتراءَى لَكَ! ماذَا تعرفُ عنْ مَا يفضِّلُهُ بابا مومين؟»

توقَّفُوا كلُّهم عنِ الأكلِ، وحملقُوا فيهِ.

قبضَ توفْت علَى مفرشِ الطَّاولةِ وصرخَ: «أنتَ تستمتعُ بأيِّ شيءٍ تفعلُهُ! فلماذَا تسعَى إلَى إنجازِ أعمالٍ ضخمةٍ؟»

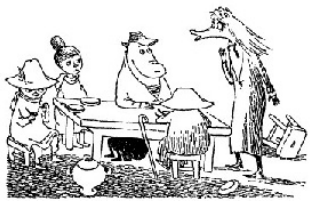

«إيه، ما يدريكُمُ الآنَ!» قالَتِ الميمبلُ بدهشةٍ. «توفْت يكشِّرُ عنْ أنيابِهِ!»

قامَ توفْت بعنفٍ بحيثُ وقعَ كرسيُّهُ، واختبَأَ تحْتَ الطَّاولَةِ.

«حقا، توفت الذي لطالمَا تصرّف باخلاقٍ حسنَةٍ،» قالتِ الفيليجونكة بصرامَةٍ. «ونحن في نزهةٍ أيضًا!»

«اسمعِي يا فيليجونكة،» خاطبَتْهَا الميميلُ بصوتٍ حازمٍ. «لا أعتقدُ أنَّ نقلَ طاولةِ المطبخِ إلى الخارجِ تجعلُ المرءَ مثلَ مامَا مومين.»

وقفَتِ الفيليجونكة وصاحَتْ: «ماما مومين! ماما مومين! هذَا كلُّ مَا أسمعُهُ! مَا المميَّزُ كثيرًا فيهَا؟ عائلةٌ متخلفةٌ، جميعُ أفرادِهَا! هم حتَّى لا ينظِّفونَ بيتَهم، معَ أنَّهُ ما من شيءٍ يمنعُهم منَ التَّنظيفِ، بل هم حتَّى لا يتركونَ أصغرَ ملاحظةٍ وراءَهم على الرَّغمِ منْ أنَّهم يعلمُونَ أنَّنا... يعلمونَ أنَّنا...» سكتَتْ عاجزةً عنِ المتابعَةِ.

«ملاحظة؟» هتفَ الجدُّ غرمبل. «وجدْتُ ملاحظةً في مكانٍ مَا، وخبَّأتُهَا في مكانٍ مَا.»

«ماذَا؟ أينَ خبَّأتَهَا؟» سألَهُ سنفكين بنبرةٍ مُلحَّةٍ.

حينئذٍ وقفُوا كلُّهم.

«في مكانٍ مَا،» غمغمَ الجدُّ غرمبل. «أعتقدُ أنَّني سأذهبُ لصيدِ السَّمكِ. أَنَا لَا أستمتعُ بهذِهِ النُّزهةِ. ليسَتْ مسليةً.»

«فكِّرِ الآنَ بتركيزٍ،» توسَّلَ إليهِ الهيميولن. «حاولْ أنْ تتذكَّرَ. سنساعدكَ. متَى رأيتَهَا آخرَ مرَّةٍ، ها، ماذَا؟ أينَ يمكنُ أنْ تكونَ قدْ خبَّأتَهَا في حالِ وجدْتَهَا الآنَ؟»

«أنَا في عطلَةٍ،» أجابَ الجدُّ غرمبل بوجهٍ عابسٍ. «يمكنُنِي أنْ أنسَى الأشياءَ كمَا أحبُّ. النِّسيانُ رائعٌ وأنوي أنْ أنسَى كلَّ شيءٍ باستثناءِ أمرٍ مهمٍّ أو أمرينِ. سأذهبُ الآنَ لأجريَ حديثًا معَ صديقِي السَّلفِ، هو يعرفُ. أنتم تخمِّنونَ فقط، أمَّا نحنُ فنعرفُ.»

بدَا السَّلفُ كمَا هوَ كالمعتادِ، ما عدَا أنَّهُ وضعَ منديلًا حولَ رقبَتِهِ.

«هللو،» حيَّاهُ الجدُّ غرمبل. «أنَا غاضبٌ حقًّا. أتعلمُ ماذَا فعلُوا بِي؟» انتظرَ برهةً. هزَّ السَّلفُ رأسَهُ ببطءٍ وخبط بقدمِهِ.

«انتَ مصيبٌ،» قالَ الجدّ غرمبل. «لقدْ افسدَوا عطلتِي. وهَا انا هُنَا اشعرُ بالفخرِ لأنَّنِي نجحْتُ في نسيانِ الكثيرِ ممَّا في رأسِي، وفجأةً يُفترضُ بِي أنْ أتذكَّرَ ما نسَيْتُهُ! هذَا يتسبَّبُ لِي وجعًا فِي بطنِي. أنَا في غايَةِ الغضبِ إلى درجَةِ أنَّني تقريبًا أعانِي منْ وجعٍ في بطنِي.»

للمرَّةِ الأولَى تذكَّرَ الجدُّ غرمبل أدويَتَهُ. بيدَ أنَّهُ عجزَ عنْ تذكُّرِ أينَ وضعَهَا.

❃❃❃

«كانَتْ فِي السَّلَّةِ،» كرَّرَ الهيميولن. «قالَ إنَّهُ وضعَهَا في السَّلَّةِ. وهيَ ليسَتْ في غرفةِ الجلوسِ.»

«لعلَّهُ تركَهَا في الحديقَةِ،» اقترحَتِ الميمبل.

وبدورِهَا هتفَتِ الفيليجونكة: «يقولُ إنَّ هذَا ذنبُنَا! كيفَ يعقلُ أنْ يكونَ هذَا خطأي؟ ما فعلْتُ سوى أنْ أعددْتُ لهُ عصيرَ كشمشٍ أسودَ ساخنًا. وقدْ أحبَّهُ!» عاينَتِ الميمبل بنظرةِ امتعاضٍ وأضافَتْ: «أعرفُ أنَّ ماما مومين تعدُّ عصيرَ كشمشٍ أسودَ ساخنًا كلَّما مرضَ أحدٌ، وهذَا ما فعلْتُهُ على أيِّ حالٍ.»

«حافِظُوا علَى هدوئِكم الآنَ،» قالَ الهيميولن. «سأخبرُكُم ما علينَا فعلُهُ؛ إنَّهَا مسألَةُ أدويةٍ وزجاجةِ براندِي، وورقةِ ملاحظَةٍ وثمانيةِ نظَّاراتٍ. سنقسِّمُ الوادي والبيتَ إلَى عدَّةِ أجزاءٍ، ثمَّ الجميعُ...»

«إي، إي،» قاطَعَتْهُ الفيليجونكة وحشرَتْ أنفَهَا في بابِ غرفةِ الجلوسِ وسألَتْ بقلقٍ: «كيفَ تشعرُ الآنَ؟»

«بالسُّوءِ،» غمغمَ الجدُّ غرمبل. «هذَا ما يحدُثُ عندمَا تتشكَّلُ قشرةٌ علَى عصيدَةِ الشُّوفانِ، وأنتم لا تتركُونني بسلامٍ لأنسَى ما أريدُ نسيانَه.» كانَ مستلقيًا على أريكَةِ غرفةِ الجلوسِ تحتَ كومةٍ منَ اللُّحفِ وقبَّعتهُ على رأسِهِ.

«كمْ عمركَ صراحةً؟» سألَتْهُ الفيليجونكة بحذرٍ.

«ليسَتْ لديَّ نيَّة في الموتِ،» صرَّحَ الجدّ غرمبل بنبرةٍ مرحةٍ. «بل كمْ عمركِ أنتِ؟»

اختفَتِ الفيليجونكة. فُتحَتِ الأبوابُ وأُغلقَتْ في شتَّى أنحاءِ البيتِ، وفي الحديقَةِ علَتِ الأصواتُ وتصاعدَ وقعُ أقدامٍ تجري. لا أحدٌ فكَّرَ في شيءٍ سوى الجدِّ غرمبل الذي قالَ لنفسِهِ لكنْ ليسَ منْ دونِ بعضِ الارتياحِ: «تلكَ السَّلَّةُ يمكنُ أنْ تكونَ في أيِّ مكانٍ.» وكانَتْ معدتُهُ قدِ استقرَّتْ.

أقبلَتِ الميمبل وجلسَتْ على طرَفِ فراشِ مرضِهِ. «اسمعْ يا جدُّ غرمبل،» بدأَتْ، «أنْتَ بخيرٍ مثلِي تمامًا، وأنتَ تعلمُ ذلِكَ.»

«محتملٌ،» أجابَ الجدُّ غرمبل. «لكنَّنِي لنْ أنهضَ قبلَ أنْ أعرفَ أنَّنِي أستطيعُ الحصولَ علَى حفلةٍ! حفلةٍ صغيرةٍ لكبارِ السِّنِّ الذينَ تعافَوا.»

«أو حفلةٌ كبيرةٌ لميمبل تريدُ أنْ ترقصَ،» قالَتِ الميمبل وهيَ تمعنُ التَّفكيرَ.

«لا علَى الإطلاقِ!» هتفَ الجدُّ غرمبل. «بل حفلةٌ كبيرة لِي وللسَّلَفِ. هوَ لمْ يحضرْ أيَّ حفلةٍ علَى مدَى مئةِ سنةٍ، والآنَ ها هوَ قابعٌ في خزانةِ الثِّيابِ يندبُ حظَّهُ.»

«إذا صدَّقْتَ هذَا فستصدِّقُ أيَّ شيءٍ،» علَّقَتِ الميمبل وهيَ تبتسمُ.

«عثرْنَا عليهَا!» صاحَ الهيميولن منَ الخارجِ. دُفعَ بابُ غرفَةِ الجلوسِ وفي الحالِ ضجَّتْ بالحركَةِ واكتظَّتْ بالنَّاسِ. «كانَتِ السَّلَّةُ تحْتَ الشُّرفَةِ!» هتفَ الهيميَولن. «وزجاجةُ البراندي كانَتْ في ناحيَةِ النَّهرِ الأخرَى!»

«الغديرِ،» صحَّحَ لهُ الجدُّ غرمبل. «سأحتسِي البراندي أوَّلًا.» فسارعَتِ الفيليجونكة إلى صبِّ مقدارٍ قليلٍ منهُ، ووقفُوا كلُّهم يراقبونَهُ باهتمامٍ بينمَا تجرَّعَهُ.

«أتريدُ القليلَ منْ كلِّ دواءٍ أمْ تريدُ نوعًا واحدًا فقط؟» سألَتْهُ الفيليجونكة.

«ولا ايّا منهَا،» اجابَ الجدّ غرمبل، وارتمَى على الوسائدِ وهوَ يتنهّدَ. «لا تشيري مطلقًا إلى أشياءَ لا أحبُّ سماعَهَا. ولنْ أتعافَى تمامًا حقًّا قبلَ أنْ تُقيمُوا لِي حفلةً...»

«انزعُوا جزمَتَهُ،» قالَ الهيميولن. «توفْت انزعْ جزمَتَهُ. هذَا أوَّلُ ما يجبُ القيامُ بهِ عندمَا يصابُ أحدٌ بوجعِ بطنٍ.»

حلَّ توفْت أربطَةَ جزمَةِ الجدِّ غرمبل ونزعَهَا. ومنْ إِحدَى الفردَتَينِ أخرجَ وريقةً بيضاءَ مجعَّدةً.

«الملاحظةُ!» صاحَ سنفكين. فردَ الوريقةَ بحذرٍ وقرأَ: «رجاءً لا تشعلُوا النَّارَ في المدفأةِ لأنَّ السَّلَفَ يعيشُ هناك. – ماما موميِّن.»

17

استعداداتٌ

ما عادَتِ الفيليجونكة تقولُ المزيدَ عن ما كانَ في خزانةِ الثِّياب، وفي المقابلِ حاولَتْ شغلَ رأسِهَا بأفكارٍ صغيرةٍ صعبةٍ منَ النَّوعِ الَّذي اعتادَتْ عليه. لكنْ في اللَّيلِ كانَ يمكنُهَا سماعُ الأصواتِ الخافتةِ الَّتي لا يسهلُ تمييزُهَا، تلكَ الَّتي تطرأُ عندمَا يزحفُ شيءٌ في داخلِ ورقِ الجدران، وأحيانًا صوتٌ متشارعٌ في الكسوةِ الخشبيَّةِ، ومرَّةً كانَتْ خنفساءَ نقَّارةَ خشبٍ تتكتكُ فوقَ قمَّةِ سريرِهَا.

أفضلُ الأشياءِ في يومِهَا بأكملِهِ هيَ لحظةُ قرعِهَا للنَّاقوسِ، ووضعُ دلوِ القمامَةِ على الدَّرجِ بعدَ حلولِ الظَّلامِ. وبمَا أنَّ سنفكين عزفَ تقريبًا في كلِّ مساءٍ حفظتِ الفيليجونكة ألحانَهُ. بيدَ أنَّهَا لم تصفِّرْ إلَّا عندمَا تتأكَّدُ منْ أنْ لا أحدَ يسمعُهَا.

في مساءِ أحدِ الأيَّامِ جلسَتْ قربَ الموقدِ محاولَةً البحثَ عنْ عذرٍ حتَّى لا تذهَبَ إلى السَّريرِ.

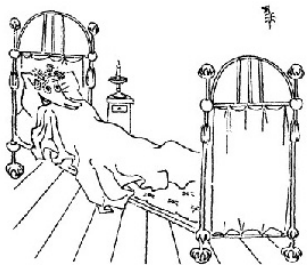

«انتِ نائمة؟» سألتْهَا الميمبل منْ وراءِ البابِ. ودخلتْ قبلَ انتظارِ سماعِ الجوابِ: «أحتاجُ إلى بعضِ ماءِ المطرِ لأغسلَ شعري.»

«هه، حقًّا،» هتفَتِ الفيليجونكة. «كنْتُ أتوقَّعُ أنْ يفيَ ماءُ النَّهرِ بالغرضِ. الماءُ في الدَّلوِ الأوسطِ. ذاكَ ماءُ ينابيعِ. ولكنْ يمكنُكِ شطْفُ شعرِكِ بماءِ المطرِ إذا كنْتِ تصرِّينَ. ولا تريقِي شيئًا على الأرضيَّةِ.»

«يبدُو أنَّكِ عدْتِ إلى طبيعتِكِ ثانيةً،» أعلنَتِ الميمبل وهيَ تضعُ الماءَ على الموقدِ. «في الواقعِ أنتِ ألطفُ هكذَا. سأترُكُ شعرِي مسترسلًا من أجلِ الحفلةِ.»

«أيُّ حفلةٍ؟» سألَتْهَا الفيليجونكة بحدَّةٍ.

«الحفلةُ منْ أجلِ الجدِّ غرمبل،» ردَّتِ الميمبل. «ألمْ تعلمِي بأنَّنَا سنقيمُ حفلَةً في المطبخِ غدًا؟»

«أنتِ لا تعنِينَ هذَا! إنَّهَا أخبارٌ جديدةٌ لِي!» هتفَتِ الفيليجونكة. «هذَا حتمًا شيءٌ يستحقُّ أنْ أعرفَهُ! إنَّهُ بالضَّبطِ ما ينبغِي أنْ يفعلَهُ النَّاسُ عندَمَا يجتمعونَ معًا، بعدَ أنْ يجرفَهم البحرُ إلى الشَّاطئِ، وتهزمهم الرِّياحُ ويغرقهم المطرُ – يقيمونَ حفلَةً وفي منتصفِهَا تنطفِئُ الأضواءُ، وعندَمَا تعودُ ثانيةً يتبيَّنُ أنَّ فردًا في البيتِ مفقودٌ.»

نظرَتِ الميمبل إلَى الفيليجونكة باهتمامٍ جديدٍ. «أحيانًا أنتِ مفاجِئةٌ للغايَةِ،» قالَتْ. «لمْ يكنْ مَا ذكرْتِهِ سيئًا مطلقًا. وبعدئذٍ يختفِي فردٌ آخرُ، وفي النِّهايَةِ لا تبْقَى سوى الهرَّةُ، تنظِّفُ نفسَهَا على قبورِهم!»

ارتعدَتْ فرائصُ الفيليجونكة. «أظنُّ أنَّ الماءَ قدْ سَخنَ،» قالَتْ. «ولا توجدُ هرَّةٌ هُنَا.»

«منَ السَّهلِ الحصولُ علَى هرَّةٍ،» قالَتِ الميمبل وهيَ تبتسِمُ. «تخيَّلِي وجودَهَا فقطْ وسترَينَهَا أمامَكِ، وبالتَّالِي تصبحُ لديكِ هرَّةٌ!» أخذَتِ القدرَ منَ الموقدِ، وفتحَتِ البابَ بمرفقِهَا. «تصبَّحينَ علَى خيرٍ،» أردفَتْ. «ولا تنسَي لفافاتِ شعرِكِ. والهيميولن قالَ إنَّكِ منْ سيزيِّنُ المطبَخَ؛ لأنَّكِ أكثرُنَا أبداعًا فنيًّا.» ثمَّ غادرَتِ الميمبل وأغلقَتْ بقدمِهَا البابَ برشاقةٍ بالغةٍ.

بدأَ قلبُ الفيليجونكة يدقُّ. إنَّهَا فنَّانةٌ مبدعَةٌ، قالَ الهيميولن إنَّهَا فنَّانةٌ. يا لَهَا من كلمةٍ رائعةٍ! انبرَتْ تهمسُ بهَا لنفسِهَا مرَّةً تلوَ مرَّةٍ.

في هداةِ الليلِ اخذتِ الفيلجونكة مصباحَ مطبخِهَا، ومضَتْ تبحثَ عنِ الزِّينةِ في الدُّولابِ فوقَ صِوانِ ملابسِ ماما مومين. الصُّندوقُ الكرتونيُّ والفوانيسُ اليابانيَّةُ والأشرطةُ كانَتْ في مكانِهَا المعتادِ في الأعلى علَى اليمينِ، وكلُّهَا متشابكةٌ وملطَّخةٌ بالشَّمع. زينةُ عيدِ الفصحِ، ورقٌ قديمٌ للَفِّ هدايَا أعيادِ الميلادِ مطبَّعٌ برسومِ ورودٍ، ومَا زالَتِ التَّهانِي عليه: «إلَى بابا الغالِي»، «عيدُ ميلادٍ سعيدٍ عزيزنَا الهيميولن»، «نرسلُ هذَا بالحبِّ والقبلاتِ، إلَى ماي الصَّغيرةِ صديقتنَا الحبيبة»، «إلى غافسي معَ أطيبِ التَّمنِّياتِ». يبدو أنَّهم لم يكونُوا يحبُّونَ غافسي كثيرًا.

ثمَّ وجدَتْ ورقَ الكريبِ الملوَّن. حملَتِ الفيليجونكة كلَّ شيءٍ إلَى المطبخِ، وبسطَتْهُ علَى لوحِ التَّجفيفِ. بلَّلَتْ شعرَهَا ووضعَتِ اللفافاتِ وهيَ تصفِّرُ بهدوءٍ طوالَ الوقتِ، بتناغمٍ جيِّدٍ وأفضل بكثيرٍ حتَّى ممَّا ظنّت.

❁ ❁ ❁

سمعَ توفْت الجميعَ يتحدَّثونَ عنْ حفلَةٍ، علَى الرَّغمِ منْ أنَّ الهيميولن دعاهَا «أمسيةٌ في البيتِ». وأدركَ أنَّ كلَّ شخصٍ لا بدَّ منْ أنْ يساهمَ في فقرةٍ ليسلِّيَ الآخرين، وراودَهُ الشَّكُّ بأنَّ أمسيةً في البيتِ تعني أنَّ علَى المرءِ أنْ يدردشَ ويمرحَ. وهوَ لمْ يشعرْ أنَّهُ راغبٌ في المرحِ. أرادَ أنْ يبقَى وحدَهُ ويحاولَ أنْ يكتشفَ لماذَا كانَ غاضبًا جدًّا في عشاءِ يومِ الأحدِ. أفزعَهُ أنْ يدركَ أنَّ في داخلِهِ توفت مختلفًا تمامًا، توفتٌ لا يريدُ أنْ يعرفَهُ، توفت قدْ يعودُ ويظهرُ ويخزيهِ أمامَ الآخرين. بعدَ ذلكَ الأحد، انكبَّ الهيميولن على بناءِ البيتِ وحدَهُ. وكفَّ عنِ استدعاءِ توفت. وكلاهما شعرَ بالحرجِ.

كيفَ أمكنَنِي أنْ أغضبَ منهُ كثيرًا؟ تفكَّرَ توفْت. ليسَ هناكَ مَا يستدعِي الغضبَ، وأنَا لمْ يسبقْ لِي أنْ غضبْتُ منْ قبلُ قطُّ. اجتاحَنِي الغضبُ بِلا سابقِ إنذارٍ، مثلَ شيءٍ يتصاعدُ ويفيضُ، مثلَ شلَّالٍ! وَأنَا في منتهَى الطِّيبةِ أيضًا.

نزلَ توفْت الطَّيبُ نحوَ النَّهرِ لجلْبِ الماءِ. ملَأَ دلوًا ووضعَهُ خارجَ الخيمَةِ. كانَ سنفكين في الدَّاخلِ يصنعُ ملعقةً خشبيَّةً، أو ربَّمَا لا شيءَ علَى الإطلاقِ، إنَّمَا

يجلسُ فقط مستكينًا ومطَّلعًا علَى الأشياءِ أفضل من أيِّ أحدٍ آخرَ. كلُّ ما يقولُهُ سنفكين جيِّدٌ جدًّا وصائبٌ تمامًا. وعندَمَا يعودُ المَرءُ وينفردُ بنفسِهِ ثانيةً يبدُو لَهُ أنَّهُ لمْ يستوعِبْ ما عنَاهُ، وأنَّ الخجلَ اعتراهُ منْ أنْ يعودَ ويسألَ. أو أحيانًا لا يردُّ علَى الأسئلةِ أبدًا، ويتحدَّثُ عنِ الشَّاي أوِ الجوِّ، ويمضغُ طرفَ غليونِهِ مُصدرًا ذلِكَ الصَّوتَ المبهمَ الرَّهيبَ، ما يجعلُ المرءَ يشعرُ أنَّهُ سألَ عنْ شيءٍ مخيفٍ جدًّا.

«أتساءَلُ لماذَا يحترمونَهُ كلُّهم،» فكَّرَ توفْت بجدِّيَّةٍ. «طبعًا تدخينُ الغليون شيءٌ عصريٌّ. ولعلَّهم يحترمونَهُ لأنَّهُ ينصرفُ عنهم ويغلِقُ على نفسِهِ في الخيمَةِ. ولكنْ أنَا أفعلُ الأمرَ نفسَهُ ولا أحدٍ يعتبرُهُ شيئًا مهمًّا. الخطأُ هوَ أنَّني صغيرٌ جدًّا. توغَّلَ توفْت في الحديقَةِ، إلَى حدودِ البركَةِ الكبيرةِ، وفكَّرَ: «لا أريدُ أصدقاء يعاملونَنِي بلطفٍ منْ غيرِ أنْ يستلطفُونَنِي فعلًا، ولا أريدُ أيَّ شخصٍ يتصرَّفُ معي بلطفٍ لمجرَّدِ ألَّا يكونَ بغيضًا. ولا أريدُ أيَّ مخلوقٍ خائفٍ. أريدُ شخصًا لا يخافُ أبدًا ويحبُّنِي حقًّا. أريدُ أمًّا!»

كانتِ البركةُ الكبيرةُ مكانًا كئيبًا في الخريفِ، مكانًا ليختبِئ فيهِ المرءُ وينتظرَ. لكنْ توفْت خمَّنَ بأنَّ المخلوقَ ما عادَ هُناكَ؛ لقدْ رحلَ. لقدْ صرَّ علَى أسنانِهِ الجديدَةِ وانطلَقَ. وهوَ، توفْت، هوَ مَنْ منحَ المخلوقَ تلكَ الأسنانَ.

كانَ الجدُّ غرمبل يأخذُ إغفاءَةً علَى الجسرِ. وبينمَا مرَّ بهِ توفْت، نهضَ وصاحَ: «سنقيمُ حفلةً! حفلةً كبيرةً علَى شرفِي!»

حاولَ توفْت أنْ يتسلَّلَ بعيدًا عنهُ، لكنَّ الجدَّ غرمبل استوقَفَهُ بعصَاهُ. «يجبُ أنْ تسمَعَنِي،» قالَ. «أخبرْتُ الهيميولن أنَّ السَّلَفَ صديقِي المقرَّبُ ولمْ يحضرْ حفلةً منذُ مئةِ سنةٍ، ويجبُ أنْ ندعُوهُ! ليكونَ ضيفَ شرفٍ! طيِّبٌ، طيِّبٌ، طيِّبٌ، يقولُ الهيميولن. وَأنَا أعلمُكُم كلَّكم أنَّنِي لنْ أحضرَ إلَى الحفلَةِ منْ دونِ السَّلَفِ! أتفهَمُ؟»

«نعم،» همسَ توفْت. «أفهَمُ.» بيدَ أنَّ ذهنَهُ كانَ مشغولًا بالتَّفكيرِ في المخلوقِ.

وجدَ الميمبل جالسةً في الشُّرفةِ تمشِّطُ شعرَهَا في شروقِ الشَّمسِ الشَّاحبَةِ. «هللو تفوتي،» حيَّتهُ. «هلْ جهَّزتَ دورَكَ؟»

«انا لا احسنُ القيامَ بشيءٍ،» اجابَ توفت وهوَ يستديرُ مبتعدًا.

«تعالَ هُنَا،» نادَتْهُ الميمبل. «يحتاجُ شعرُكَ إلى التَّمشيطِ.»

وقفَ توفْت أمامَهَا مذعنًا، وبدأَتِ الميمبلُ تمشِّطُ شعرَهُ الأشعَثَ. «إذَا مشَّطتَهُ لعشرِ دقائقَ يوميًّا فقطْ لنْ يكونَ سيئًا جدًّا،» قالَتْ. «إنَّهُ يسترسِلُ بطريقةٍ حسنَةٍ. ولونُهُ جميلٌ. إذًا، أنْتَ لا تحسِنُ القيامَ بشيءٍ؟ حسَنًا، لقدْ كنْتَ غاضبًا أليسَ كذلِكَ؟ وبعدَ ذلِكَ زحفْتَ تحْتَ الطَّاولَةِ وأفسدْتَ الأمورَ.»

وقفَ توفْت بلَا حراكٍ. أحبَّ تمشيطَ شعرِهِ. «ميمبل،» قالَ بحياءٍ. «أينَ يمكنُ أنْ تذهبِي إذَا كنْتِ مخلوقًا صخمًا ومخيفًا وغاضبًا؟»

أجابَتِ الميمبل على الفور: «إلَى ما وراء حديقةِ المطبخِ الخلفيَّةِ بينَ أشجار تلكَ الغابةِ المروِّعَةِ. إلى هُناكَ درجُوا على الذَّهابِ عندمَا يعتريهمُ الغضبُ.»

وبينمَا تابعَتِ التَّمشيطَ قالَ توفْت: «تعنينَ عندَمَا تغضبينَ.»

«لَا، أعنِي العائلةَ» أجابَتِ الميمبل. «درجُوا علَى ارتيادِ الحديقَةِ الخلفيَّةِ كلَّمَا ضاقُوا ذرعًا وتملَّكهم الغضبُ، وأرادُوا القليلَ منَ السَّلامِ والهدوءِ.»

تراجعَ توفْت خطوةً إلى الوراءِ وصاحَ: «غيرُ صحيحٍ! هم لمْ يغضبُوا قطُّ!»

«قِفْ بلَا حراكٍ،» نهرَتْهُ الميمبل. «كيفَ تعتقِدُ أنَّني أستطيعُ تمشيطَ شعرِكَ وأنْتَ تقفزُ هُنَا وهُناكَ هكذَا؟ وأصدقُكَ القولَ إنَّ بابا مومين وماما مومين يضجرُ كلٌّ منهمَا منَ الآخرِ بشدَّةٍ بينَ فترةٍ وأخرَى. تعالَ هُنَا.»

«لنْ أفعلَ!» صاحَ توفْت. «ماما مومين ليسَتْ أبدًا كمَا تقولينَ! هيَ كمَا هيَ طوالَ الوقتِ!» دفعَ بابَ غرفةِ الجلوسِ وصفقَهُ وراءَهُ. «الميمبل تكذبُ، إنَّنَا لا نعرفُ شيئًا عنْ ماما مومين، لا نعرفُ أنَّهُ منَ المستحيلِ على أيِّ ماما ألَّا تحسِنَ التَّصرُّفَ.»

✽ ✽ ✽

علَّقَتِ الفيليجونكة آخِرَ شريطٍ ملوَّنٍ من ورقِ الزِّينةِ. شريطٌ أزرقَ اللَّونِ. رجعَتْ إلى الوراءِ وتأمَّلَتْ مطبَخَهَا. كانَ أوسخَ المطابخِ في العالَمِ وأكثرَها غبارًا، لكن أوه! كَمْ بدَا تزيينُه فنيًّا! قرَّرُوا أنْ يتناولُوا عشاءً مبكِّرًا في الشُّرفةِ، حساءُ سمكٍ أُعيدَ تسخينُهُ، وبعدَ السَّابعةِ مساءً سيكونُ هناكَ خبزٌ محمَّرٌ بالجبنَةِ وشرابُ تفَّاحٍ. وجدَتْ شرابَ التُّفَّاحِ في خزانةِ ثيابِ بابا مومين، وصفيحَةَ جبنةٍ ذاتِ قشورٍ على الرَّفِّ الأعلَى في المخزَنِ. الورقةُ الملصقةُ عليهَا تقولُ «لفئرانِ الحقولِ».

وضعَتِ الفيليجونكة المناديلَ علَى الطَّاولةِ بأناقَةٍ جمّةٍ، وكلُّ منديلٍ شُكِّلَ مِثلَ بجعَةٍ (ليسَ لسنفكين طبعًا، فهو دائمًا يرفضُ استعمالَ منديلٍ). صفَّرَتْ بهدوءٍ، وجبينُهَا يحجبُهُ قدرٌ هائلٌ منَ الشَّعرِ المجعَّدِ بشدَّةٍ، وكانَ منَ السَّهلِ أنْ يلاحظَ المرءُ أنَّهَا وضعَتْ مستحضراتِ التَّجميلِ على حاجبَيها. لا شيءَ زحفَ وراءَ ورقِ الجدرانِ، لا شيءٌ أسرعَ الخطى علَى طولِ الكسوَةِ الخشبيَّةِ، وتوقَّفَتِ الخنفساءُ نقَّارةُ الخشبِ عنِ التَّكتكةِ. ففِي تلكَ اللحظةِ لا وقتَ لديهَا لهذهِ الأشياءِ، إذْ عليهَا أنْ تفكِّرَ في دورِهَا خلالَ برنامجِ الحفلةِ. مسرحيَّةُ خيالِ الظِّلِّ: «عودةُ العائلةِ». ستكونُ مثيرةً جدًّا، فكَّرتِ الفيليجونكة بينَهَا وبينَ نفسِهَا. سيحبُّونَهَا. أغلقَتْ بابَ المطبَخِ وبابَ غرفةِ الجلوسِ. فردَتْ بعضَ خراطيشِ الورقِ على لوحِ التَّجفيفِ وبدأَتْ ترسمُ. أرادَتْ أنْ تظهرَ الرَّسمَةُ أربعةَ أشخاصٍ في مركبٍ: شخصانِ كبيرانِ، وواحدٌ صغيرٌ، والرَّابعُ في غايةِ الصِّغرِ. الصَّغيرُ جدًّا يجلسُ عندَ جؤجؤِ المركَبِ. لم تسفرِ الرَّسمَةُ عمَّا تخيَّلَتْهُ الفيليجونكة تمامًا، ولمْ تكُنْ لديهَا ممحاةٌ. لكنَّ الفكرةَ هيَ المهمَّةُ. عندمَا جهَّزَتِ الرَّسمَةَ قصَّتْهَا وسمَّرَتِ المركبَ على مقبضِ المكنسَةِ. عملَتْ بسرعَةٍ وبتصميمٍ، وهيَ تصفرُ طوالَ الوقتِ، إنَّما لم تقلِّدْ ألحانَ سنفكين، بل ابتدعت ألحانًا خاصّةً بها. في الحقيقةِ صفَّرَتِ الفيليجونكة بمهارَةٍ أفضلَ بكثيرٍ من محاولَتِها الرَّسمَ أو دقَّ المسامير.

ثمَّ أضاءَتْ مصباحَ المطبخِ، كانَ الغسقُ قدْ حلَّ. بيدَ أنَّهُ في ذلكَ اليوم لمْ يكنْ غسقًا كئيبًا، بل مفعمًا بالوعودِ. ألقَى المصباحُ بصيصًا خافتًا على الجدارِ، رفعَتِ المكنسَةَ معَ الصُّورةِ الظِّلِّيَّةِ الَّتي تمثِّلُ العائلةَ في المركَبِ، فظهرَ خيالُهَا على ورقِ الجدرانِ. ما عليها الآنَ إلَّا أنْ تجلبَ ملاءةً بيضاءَ، لتمثِّلَ السَّطحَ الأبيضَ الَّذي ستنطلقُ العائلةُ عبرَهُ في البحرِ...

«افتحِي البابَ!» صاحَ الجدُّ غرمبل خارجَ غرفَةِ الجلوسِ. شقَّتِ الفيليجونكة البابَ وقالَتْ: «مبكِّرٌ جدًّا!»

«امورٌ تحدث هُنَا!» همسَ الجدّ غرمبل. «لقدْ دُعِيَ وسُلمَ بطاقة دعوةٍ! في خزانةِ الثِّيابِ. ويجبُ أنْ تضعِي هذا في مكانِ الشَّرَف.» ولوَّحَ بباقةٍ كبيرةٍ منْ نباتاتٍ نديّةٍ رُبطتْ بأوراقِ الأشجَارِ والأشنَةِ. نظرَتِ الفيليجونكةُ إلى النَّباتاتِ الذَّابلةِ وجعَّدَتْ أنفهَا. «لا بَكتيريا في مطبخِي،» قالَتْ.

«لكن هذَا قيقبٌ! وغسلْتُهَا كلَّها في الغديرِ،» اعترضَ الجدُّ غرمبل.

«البكتيريا تعشقُ الماءَ،» وضَّحَتِ الفيليجونكة. «هل أخذْتَ أدويتَكَ؟»

«أتظنِّينَ أنَّ المرءَ يحتاجُ إلى أدويةٍ في حفلَةٍ؟» ردَّ الجدُّ غرمبل بامتعاضٍ. «نسيتُ أمرَهَا. وهل لديكِ علمٌ بمَا جرَى؟ لقَدْ أضعْتُ جميعَ نظَّاراتِي من جديدٍ!»

«تهانِينَا،» قالَتِ الفيليجونكة بنبرةٍ جافَّةٍ. «وأقترحُ عليكَ أنْ ترسلَ هذهِ الباقَةَ إلَى خزانَةِ الثِّيابِ مباشرةً. هذَا أكثَرُ لياقةً.» ثمَّ صفَقَتِ البابَ بعنفٍ.

18

أصدقاءٌ غائبونَ

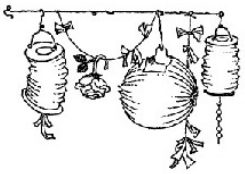

أُشعِلتِ الفوانيسُ كلُّها؛ الحمراءُ والصَّفراءُ والخضراءُ، وجميعُها تألَّقَتْ تُبدِي إعجابَهَا بانعكاسِها النَّاعمِ على ألواحِ زجاجِ النَّافذةِ المعتمةِ. دخلَ الضُّيوفُ إلى المطبخِ، تبادلُوا التَّحيَّاتِ بوقارٍ وجلسُوا. أمَّا الهيميولن فبقيَ واقفًا خلفَ كرسيِّهِ، ثمَّ قالَ: «هذهِ أُمسيةٌ في البيتِ تُقامُ على شرفِ روحِ العائلةِ. ألتمِسُ منكمُ السَّماحَ لي باستهلالِ هذهِ الأمسيةِ بقصيدةٍ كتبْتُها خصيصًا لهذهِ المناسبةِ الفريدةِ؛ والَّتي كرَّسْتُها لبابا مومين.»

أخرجَ قصاصةَ ورقٍ، وبدأَ يلقي القصيدةَ بطريقةٍ مؤثِّرةٍ كثيرًا:

«أوه أقولُ، أينَ تكمنُ السَّعادةُ الدَّائمةُ الحقيقيَّةُ؟ في الاستراحةِ المسائيَّةِ!؟ في نظرةٍ ودودةٍ!؟ بلْ هيَ أكثرُ: في الإبحارِ خارجَ الوحلِ، خارجَ القصبِ، خارجَ الازدحامِ، إلى المحيطِ الفسيحِ الهائلِ كي نبدِيَ شغفَنا بهِ. أوه ما الحياةُ؟ إنَّها لا شيءَ سوى حلمٍ، سوى جدولٍ متدفِّقٍ واسعٍ وغامضٍ. هذهِ المشاعرُ الرَّقيقةُ تفعمُ صدرِي بالتنهُّداتِ، لا أدري كيفَ، ولا أينَ ستستقرُّ؛ اهتماماتِي غزيرةٌ وموجعةٌ، أتوقُ إلى الشُّعورِ بملمسِ الدَّفَّةِ اللَّطيفةِ تحتَ كفِّي.»

صفَّقُوا لهُ كلُّهم.

«غزيرةٌ،» كرَّرَ الجدُّ غرمبل. «هذَا لطيفٌ. إنَّها الطَّريقةُ الَّتي درجَ النَّاسُ علَى التَّحدُّثِ بهَا فِي شبابِي.»

«انتظِرُوا،» استمهلَهُم الهيميولن. «لستُ أَنَا منْ عليكُم أنْ تصفِّقُوا لهُ. هيَّا نصمتُ لنصفِ دقيقةٍ لنعبِّرَ عن تقديرِنَا لعائلةِ المومين. نحنُ نأكلُ طعامَهم – أو

بالاحرَى ما تبقى منهُ – نمشِي تحتَ اشجارهم، إنهم منْ خلقوا روحَ التّسامحِ، والرُّفقةَ وبهجةَ الحياةِ الّتي تنعمُ بهَا. دقيقةُ صمتٍ!»

«قلْتَ نصفَ دقيقةٍ،» غمغمَ الجدُّ غرمبل وبدأَ يعدُّ الثَّواني. وقفُوا ورفعُوا كؤوسَهم، كانَتْ لحظةً جدِّيَّةً. «أربعٌ وعشرون، خمسٌ وعشرون، ستٌّ وعشرون...» حسبَ الجدُّ غرمبل، كانتْ ساقاهُ كليلتَينِ قليلًا في هذا اليومِ. ووجبَ أنْ تكونَ هذهِ الثَّوانِي لهُ، فهذهِ حفلتُهُ وليسَتْ حفلةَ العائلةِ في نهايةِ المطافِ. فالعائلةُ لمْ تُصَبْ بتوجعِ معدةٍ. هذا إلى جانبِ انزعاجِه منَ السَّلَفِ لعدمِ حضورِه في الوقتِ المناسبِ.

بينمَا وقفَ الضُّيوفُ صامتِين تكريمًا لعائلةِ المومين، سُمِعَ في الخارجِ في مكانٍ مَا قربَ درجِ المطبخِ صوتُ خبطٍ خافِتٌ. بدا ذلِكَ كمَا لو أنَّ شيئًا يتلمَّسُ طريقَهُ متسلّقًا الحائط. صوَّبَتِ الفيليجونكة نظرةً محمومةً تُجاهَ الباب – كانَ موصدًا. التقطتْ نظرات توفت. وكلٌّ منهما رفعَ أنفَه وتشمَّمَ الهواءَ، بيدَ أنَّهمَا لمْ ينبسَا بكلمةٍ.

«في صحَّتِكم!» هتفَ الهيميولن. «نخبُ الرُّفقةِ الطَّيِّبةِ!» شربُوا كلُّهم، شربُوا

بأصغرِ الأقداحِ وأفضلِها، تلكَ ذات الحافَّاتِ المزخرفَةِ، ثمَّ جلسُوا.

«والآن،» أردفَ الهيميولن. «سنتابعُ البرنامجَ بأصغرِ واحدٍ بينَنا. من المنصفِ أنْ يكونَ الأخيرُ هوَ الأوَّل، هَا، يَا توفت؟»

فتحَ توفت كتابَهُ علَى صفحةٍ مَا منْ نهايتِهِ، وباشرَ القراءةَ بتأنٍ نوعًا مَا، متوقِّفًا كلَّ مرَّةٍ قبلَ كلِّ كلمةٍ طويلةٍ: «الصَّفحةُ مئتان وسبعةٌ وعشرون. منَ الاستثنائيِّ أنْ نمطَ حياةَ هذا الجنسِ الَّذي سعيْنَا إلى إعادةِ تشكيلِهِ، احتفظَ بطبيعَتِهِ العاشبةِ بإحساسٍ فسيولوجيٍّ خالصٍ، بالتَّزامنِ مع موقفٍ عدوانيٍّ متواصلٍ تُجاهَ بيئتِهِ. لا تغييراتَ حدثَتْ بمَا يتعلَّقُ بشحذِ ردودِ أفعالِهِ، أو سرعتِهِ، أو قوَّتِهِ أو أيٍّ منْ سِماتِ الغرائزِ الأخرَى المرتبطةِ عادةً بتطوُّرِ آكلاتِ اللُّحومِ. الأسنانُ تُظهرُ قابليَّةَ مضغٍ حادَّةً، المخالبُ بدائيَّةٌ والرُّؤيةُ طفيفةٌ. منَ النَّاحيةِ الأخرَى، حجمُ الفردِ الكُلّيُّ لهذا الجنسِ ازدادَ بمقدارٍ مذهلٍ، وهوَ الَّذي،

ببساطةٍ، لا بدّ من أنهُ عرّضَهُ لمضايقاتٍ حتميَّةٍ، مع الأخذِ بعينِ الاعتبارِ حقيقة أنَّهُ على مدى آلاف السَّنوات قضى حياتَهُ في الشُّقوقِ المخفيَّة والصُّدوع. في هذهِ الحال نجدُ أنفسَنا أمامَ ظاهرةٍ مدهشةٍ لشكلٍ من أشكالِ التَّطوُّرِ الَّذي يوحِّدُ الخصائصَ المميَّزةَ كلَّها لأجناسِ المخلوقاتِ العاشِبةِ مع عدوانيَّةٍ غيرِ فعَّالةٍ وغيرِ قابلةٍ للتفسيرِ بتاتًا.»

«معَ ماذَا؟» استفسرَ الجدُّ غرمبل الَّذي جلسَ وكفُّهُ قربَ أذنِه طوالَ الوقتِ. طبعًا ليسَ هناكَ أيُّ خللٍ بسمعِه ما دَامَ يعرفُ ما سيقولُه الآخرونَ. فالمرءُ تقريبًا يعرفُ ما هم بصددِ قولِهِ.

«معَ عدوانيّة،» أجابَتِ الميمبل بصوتٍ عالٍ نوعًا مَا.

«لا تصيحِي في وجهِي، أنا لسْتُ بِأصمَّ،» قالَ الجدُّ غرمبل تلقائيًّا. «وما يعنِي ذاكَ؟»

«ما يُظهرُهُ المرءُ عندمَا يعتريهِ الغضبُ،» شرحَتِ الفيليجونكة.

«آهَا،» هتفَ الجدُّ غرمبل، «أنا إذًا أفهمُ المغزَى كلَّه. أَكتبَ أيٌّ منكُم شيئًا آخرَ أم أنَّنا سنباشرُ برنامجَ الحفلةِ؟» كانَ قدْ بدأ يشعرُ بعدمِ الارتياحِ بخصوصِ السَّلَف. ربَّمَا هوَ أيضًا متعبٌ ومتيبِّسٌ، ولعلَّهُ لمْ يفلحْ في النُّزولِ علَى الدَّرج. أو ربَّمَا شعرَ بالإهانةِ، أو ربَّمَا نامَ. علَى أيِّ حالٍ، لا ريبَ في أنَّ هناكَ شيئًا غيرَ صائبٍ، فكَّرَ الجدُّ غرمبل، بقليلٍ منَ السَّخطِ. إنَّهم مستحيلونَ عندمَا يتجاوزُ عمرُهم المئةَ سنةٍ. ووقحونَ أيضًا...

«ميمبل!» أعلنَ الهيميولن بصوتٍ عالٍ. «اسمحُوا لِي أنْ أقدِّمَ الميمبل!»

مشَتِ الميمبلُ إلى منتصفِ الأرضيَّةِ، وهيَ تبدُو في غايةِ الحياءِ والارتباكِ. شعرُها يصلُ إلى ركبتَيها، وبدَا واضحًا أنَّ غسلَ الشَّعرِ أسفرَ عنْ نجاحٍ باهر. وجَّهَتْ إلى سنفكين إيماءةً سريعةً فبدأ يعزفُ. عزفَ برقَّةٍ بالغةٍ. رفعَتِ الميمبل ذراعَيها، ودارَتْ حولَ نفسِها بخطواتٍ وئيدةٍ قصيرةٍ. تشو، تشو، تيدل ديدودو، نغَّمَتِ الهارمونيكا؛ بشكلٍ غيرِ ملحوظٍ تحوَّلَتِ الموسيقَى إلى لحنٍ، أصبحَتْ حيويَّةً أكثرَ فأكثرَ، وتسارَعَتْ خطواتُ الميمبل، غمرَتِ الموسيقَى والحيويَّةُ المطبخَ، وبدَا شعرُ الميمبل الأحمرُ الطَّويلُ مثلَ أشعَّةِ شمسٍ متطايرةٍ. كانَ ذلِكَ جميلًا جدًّا ومبهجًا! لا أحد سمعَ المخلوقَ، ضخمًا وثقيلًا يواصلُ الزَّحفَ حولَ البيتِ من غيرِ أنْ يدركَ ماذا يريدُ. واكبَ الضُّيوفُ الموسيقَى بقرعِ أقدامِهم، وغنَّوا تيدل ديدي، تيدل دي دوو، والميمبل خلعَتْ جزمتَهَا، ألقَتْ وشاحَها على الأرضيَّةِ، وأشرطةُ الزِّينةِ رفرفَتْ في الدِّفءِ المتصاعدِ منَ الموقدِ. أخيرًا صفَّقَ الجميعُ بينمَا توقَّفَ سنفكين عنِ العزفِ مطلِقًا صيحةً عاليةً! ضحكَتِ الميمبل مزهوَّةً بنفسِهَا.

صاحُوا كلهم: «برافو! برافو!» وقالَ الهيميولن بإعجابٍ صادقٍ: «لكِ خالصُ الشُّكرِ منَّا.»

«لا تشكرْنِي،» ردَّتِ الميمبل. «أنا لا أستطيعُ منعَ نفسِي منَ الرَّقصِ. يجدرُ بكم أنْ تفعلُوا مثلِي!»

وقفَتِ الفيليجونكة وقالَتْ: «عدمُ القدرةِ علَى التَّوقُّفِ عنْ فعلِ شيءٍ، وضرورةُ القيامِ بهِ لا يتَّفقانِ. لا أعتقدُ أنَّ مَا على المرءِ فعلُه يماثلُ عدمَ قدرتِهِ على التَّوقُّفِ عنْ فعلِه...»

رفعُوا أقداحَهم وهم يظنُّونَ أنَّ الفيليجونكة ستلقِي خطبةً. وعندمَا لمْ يحدثْ شيءٌ منْ ذلِكَ طالبُوا كلُّهم بسماعِ مزيدٍ منَ الموسيقَى. بيدَ أنَّ الجدَّ غرمبل فقدَ

اهتمامَهُ بمَا يجرِي، جلسَ يعبثُ بمنديلِ الطَّعامِ، ويلفُّهُ إلَى أنْ أصبحَ صغيرًا وسميكًا. إنَّ السَّلفَ يشعرُ بالإهانةِ علَى الأرجحِ، إذْ ينبغِي أنْ يصطحبَ أحدٌ مَا ضيفَ الشَّرفِ إلَى أيِّ حفلةٍ، كمَا اعتادَ النَّاسُ أنْ يفعلُوا أيَّامَ زمانٍ. لقدْ أساؤوا كلُّهم التَّصرُّفَ أيَّما إساءة.

فجأةً قامَ الجدُّ غرمبل، وخبطَ بيدِهِ علَى الطَّاولةِ. «لقدْ أسأنَا التَّصرُّفَ كثيرًا،» قالَ. «بدأنَا الحفلةَ بلا ضيفِ الشَّرفِ، ولم نرافقْهُ علَى السَّلالِمِ. أنتم شبَّانٌ ولا تعرفونَ شيئًا عنِ الأصولِ. بلْ حتَّى لمْ تشاهدُوا مسرحيَّةً هزليَّةً ولا مرَّةً واحدةً في حياتِكم! ما أهميَّةُ برنامجِ حفلةٍ بلا مسرحيَّةٍ؟ أنَا أسألُكم فحسب. استمعُوا الآنَ إلَى مَا أريدُ قولَه لكم! المساهمةُ بدورٍ في برنامجِ حفلةٍ يعنِي أنْ يقدِّمَ المرءُ أفضلَ ما لديهِ، والآنَ أقترحُ أنْ أريكُمْ صديقِي السَّلفَ. هوَ ليسَ مُتعبًا. وركبتاهُ ليستَا خائرتَين. هوَ غاضبٌ!»

بينمَا انبرَى الجدُّ غرمبل يتحدَّثُ اهتمَّتِ الفيليجونكة بتقديمِ الجبنَةِ بالخبزِ المحمَّرِ، بهدوءٍ، ولكنْ بتصميمٍ. تابعَت عينَا الجدِّ غرمبل شرائحَ الخبزِ وهيَ تصلُ إلَى الطَّاولةِ، ولمَّا رآهَا تستقرُّ في الصُّحونِ زعقَ: «أنتِ تفسدينَ دورِي!»

«أوه عفوًا،» اعتذرَتِ الفيليجونكة، «لكنَّهَا ساخنةٌ وقدْ أخرجْتُها توًّا منَ الفرنِ...»

«احضرُوهَا معكم، احضرُوهَا معكم،» صاحَ الجدّ غرمبل بصبرٍ نافدٍ. «لكن اخفوهَا وراءَ ظهوركم حتّى لا يشعرَ بمزيدٍ منَ الإهانةِ. وخذُوا أيضًا أقداحَكم لنشربَ نخبَ صحّتِهِ.»

حملَتِ الفيليجونكة فانوسًا ورقيًّا وفتحَ الجدُّ غرمبل خزانةَ الثِّيابِ. انحنَى باحترامٍ، فبادلَهُ السَّلفُ الانحناءَ.

«لنْ أزعجَ نفسِي بتقديمِهم إليكَ،» قالَ الجدُّ غرمبل. «ستنسَى أسماءَهم، وهذَا ليسَ شيئًا مهمًّا علَى أيِّ حالٍ.»

أدنَى الجدُّ غرمبل قدحَه منَ السَّلفِ، فصدرَ صوتُ احتكاكٍ بينمَا تبادلَا الأنخابَ.

«أَنا لا أفهمُ،» هتفَ الهيميولن.

فعاجلَتْهُ الميمبل برفسةٍ علَى ساقِهِ.

«عليكم كلُّكم أنْ تشربُوا نخبَهُ،» خاطبَهم الجدُّ غرمبل، وتنحَّى جانبًا. «لكنْ أينَ اختفَى؟»

«نحنُ أصغرُ بكثيرٍ منْ أنْ نشربَ نخبَه،» قالَتِ الفيليجونكة بعجالَةٍ. «ربَّما أغضبَهُ هذَا...»

«هيَّا، ثلاثةُ أنخابٍ علَى شرفِ السَّلفِ!» هتفَ الهيميولن. «واحدٌ، اثنان، ثلاثة، نعم، نعم، مرحَى، مرحَى!»

في طريقِ عودتِهم إلى المطبخِ، التفَتَ الجدُّ غرمبل نحوَ الفيليجونكة وقالَ: «أنْتِ لسْتِ فتيَّةً إلَى هذهِ الدَّرجَةِ...»

«إيه، إيه،» ردَّتِ الفيليجونكة بذهنٍ شاردٍ، رفعَتْ أنفَهَا وشمَّتِ الهواءَ. كانَتْ هناكَ رائحةُ عفونةٍ، رائحةُ تحلُّلٍ كريهةٍ. نظَرَتْ إلى توفْت. أشاحَ وجهَهُ

عنهَا وفكَّرَ: «كهرباء».

كانَ منَ المريحِ الرُّجوعُ ثانيةً إلى المطبخِ الدَّافِئ.

«أريدُ الآنَ أنْ أشاهدَ بعضَ الخدعِ السِّحريَّةِ،» أعلَنَ الجدُّ غرمبل. «أفِي وسعِ أحدٍ أنْ يُخرجَ أرنبًا من قبَّعتِي؟»

«لَا، جاءَ دورِي الآنَ،» اعترضَتِ الفيليجونكة بنبرةٍ مترفِّعةٍ.

«أعرفُ ما لديكِ،» صاحَتِ الميمبل. «إنَّهُ مشروعُها الرَّهيبُ حيثُ يخرجُ أحدُ الضُّيوفِ منَ الغرفةِ ويلتهمُهُ شيءٌ، ثمَّ يخرجُ آخرُ ويُلتَهمُ...»

«إنَّها مسرحيَّةُ خيالِ الظِّلِ،» قالَتِ الفيليجونكة غيرَ مباليةٍ بالميمبل. تقدَّمَتْ نحوَ الموقدِ، ثمَّ التفتَتْ وواجهَتْهم. «إنَّها مسرحيَّةُ خيالِ الظِّلِّ عنوانُها: العودةُ.»

علَّقَتِ الملاءةَ فوقَ رفِّ الخُبزِ في السَّقفِ. ثمَّ وجَّهَتْ مصباحَ المطبخِ نحوَ سلَّةِ الحطبِ وراءَ الملاءةِ، ثمَّ دارَتْ في المطبخِ، وأطفأَتِ الفوانيسَ واحدًا تلوَ الآخرِ.

«وعندمَا يعودُ الضَّوءُ من جديدٍ، يكونُ آخرُ واحدٍ قد التُهِم،» غمغمَتِ الميمبل منْ بينِ أنفاسِها.

أسكَتَهَا الهيمبولن. والفيليجونكة إختفَتْ وراءَ الملاءةِ البيضاءِ، حدَّقُوا كلُّهم وانتظرُوا، وبدأَ سنفكين يعزفُ برقَّةٍ، بما يشبهُ الهمسَ تقريبًا.

ثمَّ ظهرَ خيالٌ علَى الملاءةِ، خيالٌ أسودُ، خيالُ مركَبٍ. عندَ الجؤجؤِ تجلسُ بنتٌ في غايةِ الصِّغرِ، وشعرُهَا معقودٌ عندَ قمَّةِ رأسِها علَى شكلِ بصلةٍ صغيرةٍ.

«هذهِ مَاي الصَّغيرة،» فكرَتِ الميمل بينها وبين نفسها. «وهيَ تبدَو هكذا بالضَّبطِ. عليَّ الاعترافُ بأنَّ هذا عملٌ مدهشٌ.»

انسابَ المركبُ ببطءٍ عبرَ الملاءةِ، متهاديًا في البحرِ، ولمْ يحدثْ منْ قبلُ قطُّ أنْ أبحرَ مركبٌ بمثلِ هذهِ السَّلاسةِ والسَّكينةِ، وفيهِ تجلسُ العائلةُ كلُّها؛ مومين ترول، وماما مومين التي حملتْ حقيبةَ يدِها واستندتْ إلى حافةِ المركبِ، ثمَّ بابا مومين معتمرًا قبَّعتَه، وجالسًا في مؤخرِ المركبِ يوجِّهُهُ؛ كانُوا يَبحرونَ في طريقِهم إلى البيتِ. (لكنَّ شكلَ الدَّفَّةِ لمْ يبدُ صحيحًا.) لم يستطعْ توفْت أنْ يركِّزَ عينيهِ على أحدٍ سوَى ماما مومين. أتيحَ لهُ الوقتُ ليتشرَّبَ كلَّ تفصيلٍ فيها، بالنِّسبةِ إليه اتَّخذَ الظِّلُّ القاتمُ لونًا، وبدَا أنَّهُ ينبضُ بالحياةِ، وطوالَ الوقتِ تابعَ سنفكين العزفَ بطريقةٍ ملائمةٍ جدًّا إلى درجةِ أنَّ أحدًا منهم لم يكنْ واعيًا بالموسيقَى إلَّا بعدَ أنْ توقَّفَتْ. لقدْ عادَتِ العائلةُ إلى البيتِ.

«تلكَ كانَتْ مسرحيَّةَ خيالِ ظلٍّ حقيقيَّةً،» تمتمَ الجنُّ غرميل لنفسِه. «لقدْ شاهدْتُ العديدَ من مسرحيَّاتِ خيالِ الظِّلِّ وأنَا أتذكَّرُها كلَّها، وهذهِ هيَ الفضلى.»

أُنزلَتِ الملاءةُ، وانتهَتِ المسرحيَّةُ. أطفأتِ الفيلجونكة مصباحَ المطبخِ فغرقَتِ الغرفةُ في العتمةِ. جلسُوا كلُّهم بلا حراكٍ ينتظرُونَ مذهولينَ قليلًا.

فجأةً صاحَتِ الفيليجونكة: «لا يمكنُنِي العثورُ علَى أعوادِ الثُّقابِ.» وفي الحالِ اصطبغَتِ العتمةُ بطابعٍ مختلفٍ. سمعُوا الرِّيحَ تصفِّرُ، وبدَا كمَا لو أنَّ المطبَخَ قدِ اتَّسعَ، وجدرانُه تنزلقُ نحوَ اللَّيلِ الَّذي وراءَهَا، وسرَى البردُ في أقدامِهم.

«لا أستطيعُ العثورَ علَى أعوادِ الثُّقابِ!» كرَّرتِ الفيليجونكة بصوتٍ مسعورٍ.

تصاعدَتْ طقطقةُ أرجلِ الكراسِي، وشيءٌ ما سقطَ علَى الطَّاولةِ. وقفُوا كلُّهم، اصطدمُوا ببعضِهم في الظَّلامِ، وأحدُهم تعثَّرَ بالملاءةِ، وخرَّ علَى كرسيٍّ. رفعَ توفْت رأسَه، المخلوقُ في الخارجِ الآنَ، قالَ لنفسِه، جسمٌ ضخمٌ ثقيلٌ يحتكُّ بالجدارِ عندَ بابِ المطبخِ. ثمَّ تصاعدَ هديرُ رعدٍ.

«الحشراتُ في الخارجِ!» زعقَتِ الفيليجونكة. «وهيَ تزحفُ إلى الدَّاخلِ!»

وضعَ توفْت أذنَهُ علَى البابِ واستمعَ، لمْ يصله شيءٌ مَا عدَا أنين الرِّيحِ. رفعَ المزلاجَ وخرجَ، وانغلقَ البابُ وراءَه بلا ضجيجٍ.

أخيرًا أضيءَ المصباحُ. عثرَ سنفكين على أعوادِ الثقابِ. ندّتْ عن الهيميولن ضحكةُ ارتباكٍ. «انظرُوا!» قالَ، «لقدْ غرزْتُ يدِي في الخبْزِ المحمَّرِ!»

عادَ المطبخُ إلى طبيعَتِه ثانيةً، لكنَّ أحدًا لمْ يجلسْ. ولا أحد لاحظَ أنَّ توفْت ليسَ هناكَ.

«سنترِكُ الأشياءَ كمَا هيَ،» قالَتِ الفيليجونكة بنبرةٍ عصبيَّةٍ. «لا تحرِّكُوا شيئًا، سأنظِّفُ في الصَّباحِ.»

«لكنَّكِ لا تعنينَ أنَّكِ منهكةٌ؟» هتفَ الجدُّ غرمبل. «لقدْ أوَى السَّلفُ إلى السَّريرِ، ويمكنُ أنْ يبدأَ المرحُ الآنَ!»

بيدَ أنَّ أحدًا لمْ يشعرْ برغبةٍ في متابعةِ الاحتفالِ. تبادلُوا تحيَّةَ المساءِ، بعجالةٍ وبأدبٍ بالغٍ، تصافحُوا، وفي غضونِ فترةٍ قصيرةٍ اختفَى الضّيوفُ. خبطَ الجدُّ

غرمبل الأرضيَّةَ قبلَ أنْ يغادرَ وقالَ: «لا بأس، أنَا آخرُ منْ يغادرُ في جميعِ الأحوالِ.»

❀ ❀ ❀

عندمَا خرجَ توفْت إلى الظَّلامِ، وقفَ وانتظرَ علَى الدَّرجِ. كانَتِ السَّماءُ أفتحَ قليلًا منَ الجبالِ. الجبالُ الَّتي ارتفعَتْ حدودُهَا المتعرِّجةُ فوقَ وادِي الومين. كانَ المخلوقُ صامتًا، إلَّا أنَّ توفْت عرفَ أنَّهُ يراقبُهُ.

ناداهُ توفْت برقَّةٍ: «يا سليلَ النُّمياتِ... أيُّهَا الشّعوعيُّ الصَّغيرُ، يَا بروتوزا...» لكنَّ المخلوقَ عجزَ عنْ تمييزِ الأسماءِ الغريبةِ الَّتي في الكتابِ. كانَ علَى الأرجحِ مرتبكًا، ولا يدرِي حتَّى لماذا يزمجرُ.

القلقَ الذي اعترَى توفت فاقَ خوفهُ. لمْ يشعرْ بالإرتياحِ بخصوصِ مَا قدْ يفعله المخلوقُ منْ تلقاءِ نفسِه، كانَ ضخمًا جدًّا، وثقيلًا جدًّا وغيرَ معتادٍ علَى كونِه ضخمًا أو غاضبًا. تقدَّمَ منهُ توفْت بخطوةٍ مترددةٍ، وتهيَّأ لهُ أنَّ المخلوقَ رجعَ إلى الوراءِ فورًا.

«لا داعيَ لأنْ ترحلَ،» طمأَنَهُ توفْت. «تنحَّ أبعد قليلًا فقط.» ثمَّ تابعَ السَّيرَ علَى الحشيشِ فتراجعَ المخلوقُ، خيالٌ أخرقُ بلا شكلٍ، وحيثُ وطِئَ الأرضَ طقطقَتِ الشُّجيراتُ وتكسَّرَتْ.

أصبحَ ضخمًا كثيرًا، فكَّرَ توفْت. إنَّهُ ضخمٌ إلى درجةٍ تمنعه من التَّحرُّكِ بطريقةٍ سليمةٍ.

صدرَتْ أصواتُ تكسُّرٍ منْ أجمَةِ الياسمين. توقَّفَ توفْت وهمسَ: «تمهَّلْ، تمهَّل...»

زمجرَ المخلوقُ علَى توفْت الَّذي التقطَتْ أذنَاهُ حفيفَ المطرِ الواهِي، وتناهَي إليهِ هديرُ الرَّعدِ من مسافةٍ بعيدةٍ. تابَعَا التَّقدُّمَ، وتوفْت يخاطبُ المخلوقَ برقَّةٍ طوالَ الوقتِ. وصلَا إلى الكرَةِ البلوريَّةِ، في هذهِ الليلةِ كانَتْ صافيةَ الزُّرقةِ، والانتفاخُ الكبيرُ ظهرَ بوضوحٍ في أعماقِها.

«هذَا لا طائلَ منهُ،» قالَ توفْت. «لا نستطيعُ أنْ نردَّ الصَّاع صاعَين. لا أنا ولا أنت سنتعلَّمُ في يومٍ أنْ نفعلَ ذلِكَ. يجبُ أنْ تصدِّقني.»

استمعَ المخلوقُ. لعلَّهُ استمعَ فقط إلى صوتِ توفْت من غيرِ أنْ يعيَ مَا يقولُه. كانَ توفْت مقرورًا وحذاؤه رطبًا، غدَا نافدَ الصَّبرِ وقال: «اجعلْ نفسَكَ صغيرًا واختبِئ! لنْ تفلِحَ مطلقًا في الاستمرارِ هكذَا!»

علَى حينِ غُرَّةٍ تراكمَتِ الظِّلالُ في الكرةِ البلوريَّةِ. انفتحَ الانتفاخُ الأزرقُ الدَّاكنُ علَى شكلِ دوَّامَةٍ متلويةٍ ثمَّ انغلقَ ثانيةً، وبالتَّالِي جعلَ المخلوقَ من فصيلةِ الكائناتِ الأوليَّةِ نفسَه صغيرًا جدًّا، وعادَ إلى عنصرِهِ الأوليِّ. وهذَا لأنَّ كرةَ بابا مومين البلوريَّةَ، الَّتي تحتوي علَى كلِّ شيءٍ وتهتمُّ بكلِّ شيءٍ، فتحَتْ نفسَها للمخلوقِ المرتبكِ.

عادَ توفْت إلى البيتِ وتسلَّلَ إلى حجرةِ التَّخزينِ. تقوقعَ في شبكةِ البِركةِ ونامَ في الحالِ.

✽ ✽ ✽

بعدَ أنْ غادرَ الآخرونَ المطبخَ، بقيتِ الفيليجونكة واقفةً في مكانِها، تائهةً معَ أفكارِها. كانَتِ الفوضَى تعمُّ المطبَخَ؛ داسَتِ الأقدامُ علَى ورق الزِّينةِ، والكراسي مقلوبةٌ، وشمعُ الفوانيسِ تقطَّرَ على كلٍّ شيءٍ. التقطَتْ شريحةً منَ الخبزِ المحمَّرِ بالجبنةِ منَ الأرضيَّةِ، قضمَتْ قطعةً بذهنٍ شاردٍ وألقَتْ مَا تبقَّى في دَلوِ القمامَةِ. «حفلَةٌ ناجحةٌ،» قَالَتْ لنفسِهَا.

كانَتِ الدُّنيا تمطِرُ في الخارجِ. أرهفَتِ السَّمعَ ولمْ يصلْهَا أيُّ حسٍّ مَا عدَا صوت المطَرِ، لقدِ اختفَتِ الزَّواحِفُ.

في الحقيقةِ، لمْ تكنِ الفيليجونكة سعيدةً أو منزعجةً أو متعبةً ولَو قليلًا. بدَا كمَا لو أنَّ كلَّ مَا يحيطُ بهَا وصلَ إلَى حالةٍ منَ التَّوقُّفِ التَّامِ، وهكذَا واصلَتِ الاستماعَ إلى صوت المطَر. وبمَا أنَّ سنفكين تركَ الهارمونيكا علَى الطَّاولةِ، تناولَتْهَا، مسكَتْهَا بيدِهَا وانتظرَتْ. لا شيءَ سوى وقعِ تساقطِ المطرِ في الخارجِ، رفعَتِ الهارمونيكا ونفخَتْ. حرَّكَتْهَا يمنةً ويسرةً متحرِّيةً مَا تصدرُهُ منْ أصواتٍ. جلسَتْ على طاولةِ المطبخِ. كيفَ كانَ اللَّحنُ؟

تودلي، تودِ لي دوو... كانَ إتقانُه صعبًا، حاولَتْ وكرَّرَتِ المحاولةَ، تنقَّلَتْ بدقَّةٍ منْ نغمةٍ إلى نغمةٍ أخرَى، واهتدَتْ إلَى النَّغمةِ الصَّحيحةِ، وبالتَّالي جاءَتْ بقيَّةُ اللَّحنِ تلقَائيًّا. هرَبَ منهَا اللَّحنُ، ثمَّ عادَ. واضحٌ أنَّ علَى المرءِ أنْ يشعرَ بهِ، لا أنْ يبحثَ عنهُ هنَا وهناكَ. تودل دو، تودل دي، وسرعانَ ما توصَّلَتْ إلى سلسلةٍ كاملةٍ منَ النَّغماتِ، ولا مجالَ للإنكارِ أنْ ولا واحدةَ منهَا ليسَتْ في نسقِها الصَّحيحِ.

ساعة بعدَ ساعةٍ جلسَتِ الفيليجونكة علَى طاولَةِ المطبخ تعزفُ علَى الهارمونيكا، بتردُّدٍ ولكِنْ بدأبٍ. بدأَتِ النَّغمات تأخذُ سمةَ الألحانِ، والألحانُ تحوَّلَتْ إلى موسيقى. عزفَتْ ألحانَ سنفكين وعزفَتْ ألحانَهَا الخاصَّةَ؛ لا شيءَ يمكنُ أنْ ينالَ منهَا الآنَ، ولا شيءَ يمكنُ أنْ يجعلَها تشعرُ بعدمِ الأمانِ. لمْ يهمَّها أنْ يسمعَهَا الآخرون أو ألَّا يسمعوها. كانَتِ الأجواءُ في الحديقةِ

هادئة، وجميعُ الزَّواحفِ المخيفةِ تلاشتْ، وهيَ في ليلةٍ خريفيَّةٍ معتمةٍ وعاديَّةٍ تتخلَّلُها الرِّيحُ.

نامَتِ الفيليجونكة علَى طاولةِ المطبخِ وذراعَاهَا تحتَ رأسِها. نامَتْ نومًا هنيئًا إلى السَّاعةِ الثَّامنةِ والنِّصفِ صباحًا، وعندمَا استيقظَتْ تلفَّتَتْ تنظرُ حواليهَا وقالَتْ لنفسِهَا: «يا لَها من فوضَى! اليوم سنقومُ بعمليَّةِ تنظيفٍ شاملةٍ.»

19

بدايةُ الثَّلجِ

في السَّاعةِ الثَّامنةِ وخمسٍ وثلاثينَ دقيقةً والصَّباحُ ما زالَ متدثِّرًا بالظَّلامِ، فُتِحَتْ نوافذُ البيتِ على مصاريعِها واحدةً بعدَ أخرَى، المفارشُ وأغطيةُ الأسَرَّةِ واللُّحفُ تدلَّتْ منْ عتباتِ النَّوافذِ، وتسارعَ تيَّارٌ هوائيٌّ رائعٌ خلالَ أرجاءِ البيتِ مثيرًا غيومًا كثيفةً منَ الغبارِ.

كانَتِ الفيليجونكة تنظِّفُ. جميعُ القدورِ علَى الموقدِ تسخِّنُ الماءَ، الفراشِي والخرقُ والطَّاساتُ رقصَتْ خارجَ خزانَاتِها، ودرابزينِ الشُّرفةِ زُيِّنَ بالسَّجاجيدِ. كانَ تنظيفًا هائلًا، أشدَّ هولًا من أيِّ تنظيفٍ شهدَهُ أحدٌ. وقفَ الآخرونَ في الخارجِ عندَ المنحدرِ مشدوهين، وراقبُوا الفيليجونكة تدخلُ وتخرجُ، تأتِي وتذهبُ، وقدْ غطَّتْ رأسَها بمنديلٍ، ولبسَتْ مئزرَ ماما مومين. كانَ المئزرُ كبيرًا جدًّا بحيثُ اضطرَّتْ إلَى لفِّهِ حولَها ثلاثَ لفَّاتٍ.

دخلَ سنفكين المطبخَ بحثًا عنِ الهارمونيكا.

«إنَّها علَى الرَّفِ فوقَ الموقدِ،» أعلمَتْهُ الفيليجونكة وهيَ تمرُّ بهِ. «كنْتُ حريصةً جدًّا في استعمالِها.»

«في وسعِكِ الاحتفاظُ بهَا أكثر قليلًا إنْ شئْتِ،» قالَ سنفكين بتردُّدٍ.

فأجابَتِ الفيليجونكة بأسلوبٍ واقعيٍّ: «لَا، خذْهَا. سأجلبُ واحدةً لِي. وانتبِهْ، أنتَ تدوسُ علَى الكناسةِ.»

رائعٌ انْ تكونَ قادرة على التّنظيف من جديد. عرفتْ بالضبط اينَ توارَى الغبارُ؛ ناعمٌ ورماديٌّ ومسترخٍ بارتياحٍ في الزَّوايا؛ سعَتْ وراءَ أيٍّ كومةٍ زغبٍ صغيرةٍ ظنَّتْ نفسها أنَّهَا آمنةٌ، بعدَ أنْ تكوَّرَتْ لتصبحَ كرةً كبيرةً سمينَةً تعجُّ بالشَّعرِ. هَا، هَا! البرقاتُ والعناكبُ ومئويَّاتُ القوائمِ، وكلُّ أنواعِ الحشراتِ الزَّاحفةِ المخيفةِ طردَتْهَا مكنسةُ الفيليجونكة الكبيرةُ، وأنهارٌ بديعةٌ منَ الماءِ السَّاخنِ ورغوةُ الصَّابون أزالَتْ كلَّ شيءٍ، وبلا أدنى شكٍّ لمْ يكنْ مَا خرجَ منَ البابِ فوضى طفيفة، دلوٌ مملوءٌ بالماءِ تلوَ دلوٍ؛ يا لَها منْ بهجةٍ حقيقيَّةٍ أنْ يعاوِدَها الشّعورُ بأنَّها تنبضُ بالحياةِ!

«ما أحببْتُ قطُّ الحالَ عندمَا تنظِّفُ النِّساءُ،» قالَ الجدُّ غرمبل. «أأخبرَها أحدٌ أنَّ عليهَا ألَّا تقتربَ من خزانَةِ الثِّيابِ حيثُ يعيشُ السَّلَفُ؟»

لكنَّ خزانةَ الثِّيابِ نُظِّفَتْ أيضًا، نُظِّفَتْ ضعفَ ما نُظِّفَ غيرُها. الشَّيءُ الوحيدُ الّذي لم تلمسْهُ الفيليجونكة كان مرآةَ الخزانةِ الدَّاخليَّة، أبقَتْهَا ضبابيَّةً كمَا كانَتْ.

بعدَ فترةٍ منَ الوقتِ أصابَتْ عدوى مرحِ التَّنظيفِ الجميعَ، فانضمُّوا كلُّهم إلى الفيليجونكة مَا عدَا الجدَّ غرمبل. حملُوا الماءَ ونفضُوا السُّجَّادَ، فركُوا بقعًا منَ الأرضيَّةِ هُنَا وهناكَ، تولّى كلُّ واحدٍ منهم تنظيفَ نافذةٍ، وعندمَا داهمَهم الجوعُ

قصدُوا حجرةَ المؤنِ وبحثُوا عمَّا تبقَّى منَ الحفلةِ. لمْ تأكلِ الفيليجونكة شيئًا، ولمْ تتكلَّمْ، كيفَ بحقِّ السَّماءِ تنتابُها رغباتٌ كتلكَ! صفَّرَتْ في بعضِ الأحيانِ قليلًا، كانَتْ تمشي بخفَّةٍ وتتحرَّكُ كالرِّيحِ – لحظةً هُنَا، ولحظةً هناكَ - تجاوزَتْ عزلتَها وخوفَها، وفكَّرَتْ عرضيًّا: «أيُّ شيءٍ ذاكَ الّذي سيطرَ عليَّ؟ لمْ أكنْ أفضلَ من كرةِ زغبٍ ضخمةٍ... ولماذا؟» بيدَ أنَّها لمْ تتذكَّرْ.

وهكذَا وصلَ يومُ التَّنظيفِ الهائلِ إلى نهايته، وبلا أمطارٍ لحسنِ الحظِّ. وبحلولِ الغسقِ عادَتِ الأمورُ إلَى وضعِهَا السَّليمِ، نُظِّفَ كلُّ شيءٍ، ولُمِّعَ، وهوِّيَ، وحدَّقَ البيتُ بدهشةٍ في جميعِ الاتِّجاهاتِ منْ نوافذِه المغسولةِ

حديثًا. نزعَتِ الفيليجونكة منديلَ راسِها، وعلقتْ مئزرَ ماما مومين على مسمارِه.

«هذَا هوَ،» قالَتْ. «والآنَ سأذهبُ إلى بيتِي لأنظِّفَه. إنَّهُ بحاجةٍ إلَى ذلِكَ.»

جلسُوا علَى درجِ الشُّرفةِ معًا. ومعَ أنَّ الأُمسياتِ أصبحَتْ أشدَّ بردًا، أبقاهُم الشُّعورُ بالفراقِ والتَّغييرِ الوشيكِ حيثُ همُ.

«نشكرُكَ علَى تنظيفِ البيتِ،» قالَ الهيميولن بصوتٍ مفعمٍ بإكبارٍ صادقٍ.

«لا تشكرْنِي،» ردَّتِ الفيليجونكة. «لمْ أستطعْ منعَ نفسِي! أعنِي، يجدرُ بكِ

أنْ تفعلِي الأمرَ نفسَه يا ميمبل.»

«هناكَ شيءٌ غريبٌ،» قالَ الهيميولن. «أحيانًا أشعرُ أنَّ كلَّ مَا نقولُه ونفعلُه وكلَّ مَا يحدثُ قد سبقَ أنْ حدثَ منْ قبل، هَا؟ إذَا كنتُم تفهمونَ مَا أعنِي. كلُّ شيءٍ يتكرَّرُ.»

«ومَا الدَّاعِي لأنْ يختلفَ؟» استفسرَتِ الميمبل. «الهيميولن هوَ هيميولن دائمًا، والأمورُ نفسُها تحدثُ لهُ طوالَ الوقتِ. معَ بناتِ الميمبل يحدثُ أحيانًا أنْ يهربْنَ ليتجنبْنَ التَّنظيفَ!» ضحكَتْ بصوتٍ عالٍ وصفقَتْ ركبتَهَا.

«أستبقينَ دومًا هكذَا؟ سألَتْها الفيليجونكة بدافعِ الفضولِ.

«هذَا ما أتمنَّاهُ بالتَّأكيدِ!» أجابَتِ الميمبل.

عاينَهم الجدُّ غرمبل واحدًا تلوَ الآخرِ، كانَ ضَجِرًا منَ التَّنظيفِ الَّذي قامُوا بهِ، ومنْ حديثِهم عنْ أمورٍ لمْ تجعلْ أيَّ شيءٍ يبدُو أكثرَ واقعيَّةً. «الجوُّ باردٌ هُنا،»

قالَ. ثمّ نهضَ بمشقةٍ ودخلَ البيتَ.

ستثلجُ الدُّنيا،» لمَّحَ سنفكين.

✽ ✽ ✽

في الصَّباحِ التَّالي تساقطَ الثَّلجُ لأوَّلِ مرَّةٍ، رقاقاتٌ صلبةٌ وصغيرةٌ. وكانَ البردُ قطيعًا. وقفَتِ الفيليجونكة والميمبل على الجسرِ وودَّعتا الآخرين، ما عدا الجدَّ غرمبل الذي لَمْ يكنْ قدِ استيقظَ بعدُ.

✽ ✽ ✽

«قضيْنَا وقتًا مثمرًا للغايةِ،» قالَ الهيميولن. «عسانَا نلتقِي مجدَّدًا بصحبةِ العائلةِ.»

«نعم، نعم،» ردَّتِ الفيليجونكة بذهنٍ شاردٍ. «علَى أيِّ حالٍ أخبرْهُم أنَّ زهريَّةَ الخزفِ الصِّينيِّ منِّي. ما نوعُ تلكَ الهارمونيكا يا سنفكين؟»

«الأرغن رقمُ اثنين،» أعلمَهَا سنفكين.

«رحلةٌ موفقةٌ،» همسَ توفْت، فانبرَتِ الميمبل تقولُ: «قبِّلِ الجدّ غرمبل علَى أنفِه نيابةً عنِّي. وتذكَّرْ أنَّهُ يحبُّ مخلَّلَ الخيارِ وأنَّ النَّهرَ غديرٌ!»

حملَتِ الفيليجونكة حقيبةَ السَّفرِ. «تأكَّدْ منْ أنَّهُ يتناولُ دواءَهُ،» قالَتْ بنبرةٍ مشدَّدةٍ. «سواءَ أرادَ أمْ لم يردْ. مئةُ سنةٍ لا يمكنُ أنْ يستهانَ بهَا. وفي وسعِكُم إقامةُ حفلةٍ بينَ حينٍ وآخرَ إذا رغبْتُم.» ثمَّ عبرَتِ الجسرَ منْ غيرِ أنْ تلتفتَ. وهمُ اختفَوا في الثَّلجِ المدوِّمِ، تائهينَ في ذلكَ الشُّعورِ المختلطِ منَ الكآبةِ والارتياح الذي يصاحبُ لحظاتِ الوداعِ عادةً.

❀ ❀ ❀

تساقطَ الثَّلجُ طوالَ النَّهارِ وازدادَتْ حدَّةُ البردِ. الأرضُ المحجوبةُ بالثَّلجِ، رحيلُ الفيليجونكة والميمبل، البيتُ النَّظيفُ – كلُّ ذلِكَ أشاعَ في أيَّامِهم شعورًا بالسّكينةِ والاستبصارِ. وقفَ الهيميولن يعاينُ شجرتَه، نشرَ بعضَ الخشبِ وتركَهُ على الأرضِ. ثمَّ وقفَ واكتفى بالنَّظرِ. في بعضِ الأحيانِ ذهبَ ونقرَ على البارومتر.

تمدَّدَ الجدُّ غرمبل علَى أريكةِ غرفةِ الجلوسِ، وتفكَّرَ فِي مَا آلَتْ إليهِ الأمورُ. كانَتِ الميمبل على حقٍّ. فهوَ بلا سابقِ إنذارٍ اكتشفَ أنَّ الغديرَ ليسَ إلَّا جدولًا. جدولٌ بُنيٌّ يتقوَّسُ بينَ الضِّفافِ الثَّلجيَّةِ، وبكلِّ بساطةٍ هوَ مجرَّدُ جدولٍ بُنيٍّ. ومَا عادَ هناكَ أيُّ سببٍ يستدعِي منهُ صيدَ السَّمكِ هناكَ. وضعَ الوسادةَ المخمليَّةَ فوقَ رأسِهِ، واسترجعَ فِي ذهنِهِ غديرَهُ السَّعيدَ، تذكَّرَ المزيدَ والمزيدَ عنهُ، وكيفَ مرَّتِ الأيَّامُ منذُ وقتٍ طويلٍ، طويلٍ، حيثُ كانَ هناكَ سمكٌ وافرٌ، وكانَتِ

اللَّيالِي دافئةً ومضيئةً، والأشياءُ حدثَتْ طوالَ الوقتِ. والمرءُ يسابقُ قدمَيهِ حتَّى لا يفوِّتَ على نفسِه شيئًا ممَّا يجري، وأحيانًا يأخذُ إغفاءةً قصيرةً باعتبارِها مسألةً ثانويَّةً تخطرُ على البالِ، ويَضحكُ على كلِّ شيءٍ...

ذهبَ ليتحدَّثَ معَ السَّلَف. «هللو،» بدأَ «إنَّها تُثلِج. لماذَا لا تطرأُ إلَّا أحداثٌ قليلةٌ هذهِ الأيَّام؟ ولماذَا هيَ تافهةٌ جدًّا؟ أينَ غديرِي؟» صمتَ الجدُّ غرمبل. أتعبَتْهُ محادثةُ صديقٍ لا يَجيبُ أبدًا. «أنتَ كبيرُ السِّنِّ جدًّا،» قالَ وخبطَ الأرضيَّةَ بعصاه. «والآنَ أقبلَ الشِّتاءُ وستغدُو أكبرَ سنًّا. المرءُ يهرمُ كثيرًا في الشِّتاءِ.» نظرَ الجدُّ غرمبل إلى صديقِه وانتظرَ. كانَتْ كلُّ الأبوابِ مفتوحةً والغرفُ مكشوفةً ونظيفةً، اختفَى الإهمالُ المبهجُ، السَّجاجيدُ تستقرُّ بدقَّةٍ متناهيةٍ بأشكالِها المستطيلةِ، والجوُّ باردٌ وضوءُ الشِّتاءِ المثلجِ يحطُّ على كلِّ شيءٍ. شعرَ الجدُّ غرمبل فجأةً بالغضبِ واليأسِ فصاحَ: «ماذَا؟ قُلْ شيئًا!»

لكنَّ السَّلف لمْ يجبْ. وقف حيثَ هوَ فحسب، يحدَق ببلاهةٍ مرتديًا قميصَ نومِهِ الطَّويلِ كثيرًا عليهِ، ولمْ ينبسْ ببنتِ شفةٍ.

«اخرجْ!» قالَ الجدُّ غرمبل بحدَّةٍ. «اخرجْ والق نظرةً. لقدْ غيَّرُوا كلَّ شيءٍ وأنا وأنتِ فقط نعرفُ كيفَ كانتِ الأوضاعُ في البدايةِ.» ثمَّ وخزَ الجدُّ غرمبل بطرفِ السَّلفِ بعصاه بشيءٍ من القسوةِ. تصاعدَ صوتُ رنينٍ وتكسَّرَتِ المرآةُ القديمةُ وسقطتْ على الأرضيَّةِ، تبقَّتْ شظيَّةٌ واحدةٌ ضيِّقةٌ صامدةً للحظاتٍ تُظهرُ وجهَ

السَّلفِ المرتبكَ - ثمَّ تهاوَتْ هيَ أيضًا، ووقفَ الجدُّ غرمبل وجهًا لوجهٍ أمامَ لوحِ الخزانةِ البُنِّيِّ الَّذي لم يعنِ لهُ شيئًا على الإطلاقِ.

«أوه، حقًّا، أهذَا ما وصلْنَا إليهِ؟» دمدمَ الجدُّ غرمبل. «لقدْ رحلَ. اعتراهُ الغضبُ وغادرَ.»

✽ ✽ ✽

جلسَ الجدُّ غرمبل أمامَ موقدِ المطبخِ يفكِّرُ. كانَ الهيميولن يجلسُ إلَى الطَّاولةِ، وأمامَهُ تنتشرُ رسوماتٌ كثيرةٌ. «شيءٌ غيرُ سليمٍ بخصوصِ الجدرانِ،» قالَ. «إنَّهَا مائلةٌ منَ الجهةِ الخطأ، وقدْ يقعُ المرءُ منهَا، مستحيلٌ بتاتًا ملاءمَتها معَ الأغصانِ.»

«لعلَّهُ دخلَ في البياتِ الشَّتويِّ،» فكَّرَ الجدُّ غرمبل.

«في الواقعِ،» تابعَ الهيميولن، «الجدرانُ تحبسُ المرءَ في الدَّاخلِ. إذَا جلسَ المرءُ على شجرةٍ ربَّمَا يكونُ منَ الألطفِ أنْ يرَى ما يجرِي منْ حولِهِ، هَا؟»

«لعلَّ الأحداثَ المهمَّةَ تجرِي في الرَّبيعِ،» قالَ الجدّ غرمبل لنفسِه.

«ما رأيُكَ؟ سألَهُ الهيميولن. «أذاكَ أفضلُ؟»

«لَا،» غمغمَ الجدُّ غرمبل. لم يكنْ يصغِي. فهوَ أخيرًا عرفَ مَا سيقومُ بهِ، وذاكَ في غايةِ البساطةِ! سيتجاوزُ فصلَ الشِّتاءِ بأكملِه وبقفزةٍ واحدةٍ سيجدُ نفسَه في شهرِ نيسان. لا شيءَ هناكَ يستحقُّ هذَا العناءَ، لا شيءَ قطعًا! ما عليهِ سوَى أنْ يعدَّ لنفسِه بقعةً جيِّدةً لينامَ فيهَا ويتركَ العالمَ يتابعُ مسيرتَه. وعندمَا يستيقظُ ثانيةً يكونُ كلُّ شيءٍ كمَا ينبغِي أنْ يكونَ. قصدَ الجدُّ غرمبل حجرةَ المؤنِ، وأنزلَ وعاءَ إبرِ التَّنُّوبِ، كانَ في غايةِ السَّعادةِ وداهمَهُ فجأةً نعاسٌ شديدٌ. مرَّ بالهيميولن الغارقِ في أفكارِهِ وقالَ: «بَاي بَاي! نويْتُ الدُّخولَ في البياتِ الشتويِّ.»

✽ ✽ ✽

كانَتِ السَّماءُ في تلكَ اللَّيلةِ صافيةً تمامًا. تكسَّرَ الجليدُ الرَّقيقُ تحتَ قدمَيِ توفْت بينَمَا مشَى عبرَ الحديقةِ. كانَ الوادِي مجلَّلًا بسكينةِ البردِ، والثَّلجُ يومضُ على منحدراتِ التِّلالِ. كانَتِ الكرةُ البلوريَّةُ خاويةً. مجرَّدُ كرةٍ بلوريَّةٍ جميلةٍ. إلَّا أنَّ السَّماءَ الحالكةَ اكتظَّتْ بالنُّجومِ، ملايينُ منْ ماساتٍ لمَّاعةٍ مشعَّةٍ، نجومُ الشِّتاءِ الوامضةُ في الجوِّ الباردِ.

«حلَّ الشِّتاءُ الآنَ،» قالَ توفْت بعدَ دخولِه إلى المطبخِ.

والهيميولن توصَّلَ إلى القرارِ بأنَّ البيتَ سيكونُ أجملَ بلا جدرانٍ أرضيَّةٌ فقطْ، وحزمَ أورافَه بارتياحٍ ثمَّ قالَ: «دخلَ الجدُّ غرمبل في البياتِ الشتويِّ.»

«هل أخذَ معَه أغراضَه كلَّها؟» استفسرَ توفْت.

«ومَا حاجَتُه لَها؟» سألَه الهيميولن بدهشةٍ.

طبعًا، عندمَا يدخلُ المرءُ في البياتِ الشَّتويِّ، يصحُو وهوَ أكثرُ شبابًا، ولا يحتاجُ في هذه الفترةِ إلَّا أنْ تتركَ بسلامٍ. لكنَّ توفْت تخيَّلَ أنَّهُ عندمَا يصحُو المرءُ منْ نومِه الطَّويلِ، منَ المهمِّ أنْ يعرفَ أنَّ أحدًا قدْ فكَّرَ فيهِ بينمَا كانَ

نائمًا. ولذلِكَ جمعَ أغراضَ الجدّ غرمبل، ووضعَها خارجَ خزانةِ الثيابِ. غطى الجدَّ غرمبل باللّحافِ وكمَّرَه بهِ جيِّدًا، فالشِّتاءُ قدْ يكونُ قارسًا جدًّا. فاحَتِ الخزانةُ برائحةِ توابلَ واهيةٍ. وكانَ ما تبقَّى في زجاجةِ البراندي كافيًا من أجلِ قدحٍ صغيرٍ منعشٍ في شهرِ نيسان.

20

الذَّهابُ إلى البيتِ

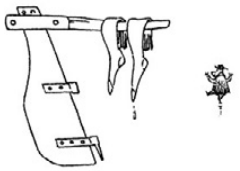

بدَا الوادِي أكثرَ سكونًا بعدَ أنْ أخلدَ الجدُّ غرمبل إلى بياته الشّتوي. ومَا بينَ وقتٍ وآخرَ سُمِعَ صوتُ المطرقةِ بينمَا انهمَكَ الهيميولن يعملُ علَى شجرةِ القيقَبِ أحيانًا انصرفَ إلَى تقطيعِ الخشبِ خارجَ كوخِ الحطبِ. وما عدَا ذلِكَ غرقَ كلُّ شيءٍ فِي السُّكونِ. قالُوا لبعضِهِم «هللو» و «صباحُ الخير» بيدَ أنَّهم لمْ يشعرُوا برَغبةٍ في الدَّردشةِ. كانُوا ينتظرونَ وصولَ حكايتِهم إلى نهايتِها.

منْ وقتٍ لآخرَ يقصدُ أحدَهم مخزنَ المؤنِ للحصولِ علَى شيءٍ يأكلُه. وإبريقُ القهوةِ وُضِعَ علَى الموقدِ طوالَ اليومِ ليبقَى دافئًا.

في واقعِ الأمرِ، كانَ السُّكونُ في الوادي جميلًا جدًّا، ومريحًا أيضًا، وتآلفُوا معَ بعضِهم علَى نحوٍ أفضلَ بكثيرٍ بعدمِ تقابلِهم غالبًا. كانَتِ الكرَةُ البلوريَّةُ خاويةً تمامًا، وجاهزةً لتمتلِئ بأيِّ مَا يمكنُ أنْ يطرأَ. والجوُّ ازدادَ بردًا أكثرَ فأكثرَ بمرورِ الأيَّامِ.

في صباحِ أحدِ الأيَّامِ حدثَ شيءٌ مَا. تهاوَتْ أرضيَّةُ بيتِ الشَّجرةِ وتحطَّمَتْ، فبدَتْ شجرةُ القيقبِ كمَا درجَتْ أنْ تكونَ قبلَ أنْ يبدأَ الهيميولن في البناءِ.

«هذَا مضحِكٌ،» قالَ الهيميولن. «يتملَّكُني ذلِكَ الشُّعورُ ثانيةً – أعنِي أنَّ النَّوعَ نفسَه منَ الأحداثِ يتكرَّرُ طوالَ الوقتِ.»

وقفَ ثلاثتُهم تحتَ الشَّجرةِ، ونظرُوا إلَى ما حدثَ.

«ربّما،» تمتمَ توفت بحياءٍ، «ربّما يفضّلَ بابا مومين انْ يجلسَ على الشجرةِ كمَا هيَ.»

«أعتقدُ أنَّ لديكَ وجهةَ نظرٍ،» أقرَّ الهيميولن. «ومعَهُ فنجانُ الشَّاي، إيه؟ طبعًا يمكنني دقُّ مسمارٍ من أجلِ الفانوسِ، لكنْ سيبدُو الوضعُ طبيعيًا أكثرَ إذَا عُلِّقَ على غصنٍ.»

دخلُوا البيتَ لشربِ القهوةِ، وهذهِ المرَّة احتسُوها معًا، بالفناجِين وصحونِها.

«تخيَّلُوا كيفَ جمعَتْنا الصُّدفةُ معًا،» قالَ الهيميولن بجدِّيَّةٍ وحرَّكَ قهوتَهُ. «وماذَا عليْنَا أنْ نفعلَ الآنَ؟»

«ننتظرُ،» قالَ توفْت.

«صحيح،» قالَ الهيميولن، «لكنْ ماذَا عنِّي؟ ليسَ عليكُما إلَّا الانتظارُ إلَى أنْ يعودُوا، بيدَ أنَّ الوضعَ مختلفٌ بالنِّسبةِ لِي.»

«لماذَا؟» سألَه توفْت.

«لا أدرِي،» أجابَ الهيميولن.

صبَّ سنفكين مزيدًا منَ القهوةِ وقالَ: «ستهبُّ الرِّيحُ بعدَ السَّاعةِ الثَّانية عشرة.»

«هذَا هوَ نوعُ الكلامِ الَّذي تقولُه دائمًا!» انفجرَ توفْت. «يسألُك شخصٌ عمَّا يمكنُ أنْ يفعلَه، وعمَّا سيحدثُ، أو أنَّ هذَا رهيبٌ، وكلُّ ما لديك لتقوله هوَ أنَّ الثَّلجَ سيتساقطُ، أو أنَّ عاصفةً ستهبُّ، أو شيئًا منْ هذَا القبيلِ، أو أتريدُ مزيدًا منَ السُّكرِ...»

«عاودَكَ الغضبُ،» هتفَ الهيميولن بدهشةٍ. «لماذَا لا يعتريكَ الغضبُ إلَّا خلالَ فتراتٍ طويلةٍ؟»

«لا أدرِي،» غمغمَ توفْت. «أنا لسْتُ غاضبًا بطبيعتي، هذا يسيطرُ عليَّ فجأةً...»

«كنْتُ أفكِّرُ في الزَّورقِ،» وضَّحَ سنفكين. «إذَا هبَّتِ الرِّيحُ بعدَ السَّاعةِ الثَّانية عشرة، يمكِنُ أنْ أذهبَ أنا والهيميولن في جولةٍ بحريَّةٍ.»

«الزَورق يسرَّبُ الماءَ،» قالَ الهيميولن.

«لَا، غيرُ صحيحٍ،» ردَّ سنفكين. «لقدْ أصلحْتُه. ووجدْتُ الشِّراعَ في كوخِ الحطبِ. أتريدُ أنْ تبحرَ؟»

بسرعةٍ غضَّ توفْت بصرَه وحدَّقَ في فنجانِ قهوتِه؛ عرفَ أنَّ الهيميولن خائفٌ.

غيرَ أنَّ الهيميولن قالَ: ذاكَ سيكونُ رائعًا قطعًا.»

تصاعدَتْ وتيرةُ الرِّيحِ في حوالَي السَّاعةِ الواحدةِ والنِّصفِ، ليسَ كثيرًا، ولكنَّ البحرَ عجَّ بأمواجٍ صغيرةٍ. جلبَ سنفكين الزَّورقَ إلى رصيفِ كوخِ الاستحمامِ، رفعَ دعامةَ الشِّراعِ وجعلَ الهيميولن يجلسُ في المقدمَةِ. كانَ الجوُّ قارسَ البردِ وكانَا يلبسانِ كلَّ مَا عثرَا عليهِ منْ ثيابٍ صوفيَّةٍ. بدَتِ السَّماءُ صافيةً، أما عندَ الأفقِ فتراكمَتْ كومةٌ منْ سحبٍ شتائيَّةٍ داكنةِ الزُّرقةِ. استدارَ سنفكين نحوَ الدَّفَّةِ، فانحرفَ الزَّورقُ واستجمعَ السُّرعةَ.

«عظمةُ البحرِ،» صاحَ الهيميولن بصوتٍ مرتعشٍ. علَا الشُّحوبُ أنفَه، وحملقَتْ عيناه برعبٍ في شفيرِ الزَّورقِ المواجهِ للرِّيحِ، رأى أنَّهُ قريبٌ جدًّا منَ البحرِ المزبدِ. إذًا، هذَا هوَ الشُّعورُ، فكَّرَ. هذَا مَا هوَ عليهِ الإبحارُ. ينقلبُ العالمُ رأسًا على عقبٍ، ويصمدُ المرءُ من أجلِ الحياةِ الغاليةِ وهوَ متشبِّثٌ بحافَّةٍ هاويةٍ فاغرةِ الفمِ، يتجمَّدُ ويعتريهِ الخجلُ، وعندَما يفوتُ الأوانُ يتمنَّى لو أنَّهُ لمْ يأتِ مطلقًا. آملُ وأصلِّي ألَّا يلاحظَ سنفكين إلى أيِّ درجةٍ أنَا خائفٌ.

إلى ما وراء راسِ الخليجِ اندفعَ الزَورقِ نحوَ عرضِ البحرِ في الماءِ المنتفخِ الذي أثقلتْهُ عاصفةٌ مَا. ثبّتَ سنفكين نفسَه وتابعَ التَّقدُّمَ.

بدأَ الهيميولن يشعرُ بالغثيانِ. جاءَهُ ببطءٍ، جاءَهُ غدرًا، تثاءَبَ وتثاءَبَ، وازدردَ ريقَه وازدردَ، وفجأةً اجتاحَ الإعياءُ والإنهاكُ جسمَه كلَّه، وتصاعدَتْ منْ معدتِهِ رغبةٌ كريهةٌ في القيءِ. لمْ يردْ إلّا أنْ يموتَ.

«تسلَّمِ الدَّفَّةَ الآنَ،» قالَ لهُ سنفكين.

«لا، لا، لا،» همسَ الهيميولن ويدُه تلوِّحُ بوهنٍ اعتراضًا، بيدَ أنَّ التَّعذيبَ المروِّعَ في معدتِهِ المتخبِّطةِ أخذَ يشتدُّ، وكلُّ مَا عدَا ذلِكَ في البحرِ الذِي لا يرحمُ تمخورَ في الاتجاهِ الآخرِ.

«يجبُ أنْ تتسلَّمَ الدَّفَّةَ» كرَّرَ سنفكين. ثمَّ قامَ وجاهدَ عبرَ مقعدِ التَّجديفِ الأوسطِ. تأرجحتِ الدَّفَّةُ جيئةً وذهابًا بلا ضابطٍ، بلا حولٍ ولا قوَّةٍ – وينبغِي أنْ يمسكَها أحدٌ، كانَ هذَا رهيبًا – رجعَ الهيميولن إلى الوراءِ، تخبَّطَ وترنَّحَ فوقَ مقعدِ التَّجديفِ وقبضَ على الدَّفَّةِ بيدِه المتجمِّدةِ، اهتزَّ الشِّراعُ بجنونٍ، كانَتْ تلكَ نهايةَ العالمِ! وسنفكين اكتفَى بالجلوسِ وحدَّقَ في الأفقِ.

وجَّه الهيميولن الدَّفَّةَ هُنَا وهناكَ، طقطقَ الشِّراعُ، دخلَ الماءُ في الزَّورقِ، وتابعَ سنفكين تحديقَهُ في الأفقِ. الغثيانُ الرَّهيبُ الَّذي ألمَّ بالهيميولن جعلَهُ غيرَ قادرٍ ولا علَى التَّفكيرِ، وبالتَّالي وجَّه الدَّفَّةَ بالغريزةِ، فجأةً أصبحَ في وسعِه أنْ يقودَ الزَّورقَ، امتلأَ الشِّراعُ بالرِّيحِ، وانطلقَ الزَّورقُ علَى طولِ السَّاحلِ في الماءِ المنتفخِ الثَّقيلِ.

لن يعتريَنِي الغثيانُ الآنَ، فكَّرَ الهيميولن. سأتشبَّثُ بالدَّفَّةِ بأشدّ مَا يمكنني ولنْ أُصابَ بالغثيانِ.

بدأَتْ معدتُهُ تستقرُّ. أبقَى عينيهِ مركَّزتين علَى الشَّفيرِ الَّذي ارتفعَ وهبطَ، وأبحرَ الزَّورقُ بحريَّةٍ معَ الرِّيحِ أبعدَ فأبعدَ في عرضِ البحرِ.

❋ ❋ ❋

انهَى توفت تنظيف الأوانِي ورتبَ سريرَ الهيميولن. جمعَ الواحَ الأرضيَّةِ التِي تحتَ شجرةِ القيقب وخبَّأَها وراءَ كوخِ الحطبِ. ثمَّ جلسَ إلى طاولةِ المطبخِ يستمعُ إلى الرِّيحِ وينتظرُ.

أخيرًا سمعهمَا يتحدَّثانِ في الحديقَةِ، لقدْ عادَا. سمعَ وقعَ خطواتٍ خارجَ المطبخِ وبعدئذٍ دخلَ الهيميولن وقالَ: «هللو.»

«هللو،» ردَّ توفْت. «أكانَ الهواءُ شديدًا؟»

«عاصفةٌ قويَّةٌ،» أجابَ الهيميولن. «جوٌّ منعشٌ قاسٍ.» كانَ مقرورًا جدًّا ويرتعدُ من رأسِه إلى أخمصِ قدميهِ، ووجهُه ما زالَ أخضرَ اللَّونِ. خلعَ جزمتَه وجوربَيه وعلَّقها على الموقدِ لتجفَّ. صبَّ له توفْت بعضَ القهوةِ. جلسَا إلى الطَّاولةِ وجهًا لوجهٍ والحرجُ يعتريهما.

«أتساءَلُ،» بدأَ الهيميولن. «أتساءَلُ مَا إذَا أصبحَتْ عودَتِي إلى بيتِي قريبةً.» عطسَ وأضافَ: «لقدْ وجَّهْتُ الدَّفَّةَ.»

«لعلَّكَ تشعرُ بالحنينِ إلى قاربِكَ،» غمغمَ توفْت.

صمتَ الهيميولن فترةً طويلةً. وعندمَا تكلَّمَ في النِّهايةِ كانَتْ ترتسِمُ علَى وجهِهِ تعابيرُ الارتياحِ الهائلِ. «أتدرِي،» بدأَ، «سأُخبرُكَ بشَيءٍ. هذهِ أوَّلُ مرَّةٍ في حياتِي كلِّها أخرجُ إلى البحرِ.»

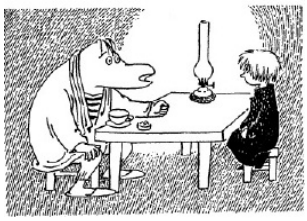

لمْ يرفعْ توفْت عينَيه، فسألَهُ الهيميولن: «ألستَ متفاجئًا؟»

هزّ توفْت رأسه نفيًا.

نهضَ الهيميولن وأخذَ يذرعُ المطبخَ ذهابًا وإيابًا، كانَ في غايةِ الهياجِ. «اكتشفتُ أنَّ الإبحارَ فظيعٌ،» قالَ. «أصابَني غثيانٌ قويٌّ ولمْ أرغَبْ إلَّا في أنْ أموتَ، سيطرَ عليَّ الذُّعرُ طوالَ الوقتِ!»

نظرَ توفت إلى الهيميولن وقالَ: «لا بدّ منْ انهَا كانتْ تجربة رهيبة.»

«كانَتْ كذلِكَ» أقرّ الهيميولن بامتنانٍ. «إلَّا أنَّني لمْ أجعلْ سنفكين يلاحظُ أيَّ شيءٍ! ظنَّ أنَّني ماهرٌ في تسلِمِ الدَّفَّةِ، وأنَّ لديَّ اللَّمسةَ المناسِبةَ. والآنَ أدركُ أنَّني لسْتُ بحاجةٍ إلى الإبحارِ، أليسَ كذلِكَ، هَا؟» أدركْتُ توًّا أنَّني لا أحتاجُ أبدًا إلى ركوبِ البحرِ مرَّةً أخرَى.»

رفعَ الهيميولن رأسَه وضحكَ من قلبِهِ. تمخَّطَ بعنفٍ في منشفةِ المطبخِ وقالَ: «عادَ لِي الدِّفءُ الآنَ. حالمَا تجفُّ جزمَتِي وجوربَايَ سأعودُ إلى ديارِي. أنا واثقٌ من أنَّ كلَّ شيءٍ هناكَ في حالةِ فوضَى! يحتاجُ الكثيرُ إلى التَّنظيمِ!»

«هل تنوِي القيامَ بالتَّنظيفِ؟» سألَهُ توفْت.

«لا طبعًا!» هتفَ الهيميولن. «سأنظِّمُ الأشياءَ من أجلِ الآخرين. لا يوجدُ أناسٌ كثُر يعرفونَ كيفَ ينبغِي أنْ يعيشُوا، أو يستطيعونَ تدبُّرَ أمورِهم وحدهم!»

✽ ✽ ✽

لطالمَا كانَ الجسرُ مركزَ الوداع. جفَّتْ جزمةُ الهيميولن وجوربَاه وأصبحَ جاهزًا للرحيلِ. واصلتِ الرِّيحُ هبوبَها وشعرُه الخفيفُ تطايرَ هُنَا وهناكَ. كانَ قدْ أصيبَ بالزُّكامِ، أو ربَّمَا كانَ ذلكَ جراءَ اختلاجِ العواطفِ.

«هَا هيَ قصيدَتِي،» قالَ الهيميولن وهوَ يعطِي سنفكين قصاصةَ ورقٍ. «ألَّفتُها كتذكارٍ كمَا تعلمُ؛ القصيدةُ الَّتي تبدأُ بـ أينَ تكمنُ السَّعادةُ الدَّائمةُ الحقيقيَّةُ. لتحفظْكُمَا السَّماءُ، وبلِّغُوا العائلةَ سلامِي.» لوَّحَ بيدِه مودِّعًا وغادرَ.

بمجرَّدِ أنْ عبرَ الهيميولن الجسرَ أقبلَ توفْت يجرِي وراءَهُ وسألَهُ: «ماذَا تنوي أنْ تفعلَ بقاربِك؟»

«قاربِي؟» كرَّرَ الهيميولن. «أوه نعم، قاربِي.»

فكَّرَ ثمَّ قالَ: «سأنتظرُ إلى أنْ أقابلَ الشَّخصَ المناسبَ.»

«تعنِي شخصًا يحلمُ بالإبحارِ؟» سالهُ توفت.

«لَا، أبدًا!» أجابَ الهيميولن. «أيُّ أحدٍ يحتاجُ إلى قاربٍ.» لوَّحَ بيدِهِ مودِّعًا مرَّةً أخرَى، واختفَى بينَ أشجارِ البتولا.

تنفَّسَ توفْت الصُّعداءَ. لم يبقَ إلَّا واحدٌ. وقريبًا يصبحُ الوادِي خاليًا كخلوِّ الكرةِ البلوريَّةِ منْ أيِّ شيءٍ، ولنْ يغدُو ملكَ أحدٍ سوَى عائلة المؤمين وتوفْت. مرَّ بسنفكين وسألهُ: «متَى تنوي الانطلاقَ؟»

«كلُّ شيءٍ مرهونٌ بوقتِهِ،» ردَّ سنفكين.

21

الرُّجوعُ إلى الدِّيارِ

دخلَ توفْت غرفةَ ماما مومين لأوَّلِ مرَّةٍ. كانَتْ بيضاءَ. ملأَ دورقَ الماءِ ورتَّبَ غطاءَ السَّريرِ المخرَّمِ. وضعَ زهريَّةَ الفيليجونكة على طاولةِ السَّريرِ الجانبيَّةِ. لمْ تعلِّقْ ماما مومين أيَّ صورٍ على الجدرانِ، وعلى المنضدَةِ كانَ هناكَ صحنٌ صغيرٌ فيهِ دبابيسُ أمانٍ، فليتةٌ وحجرانِ مَستديرانِ. وجدَ توفْت على عتبةِ النَّافذةِ مُديةَ حيبِ. «نسَيَتها،» قالَ لنفسِهِ. «إنَّها تلكَ المُديةُ الَّتي تصنعُ بِها عادةً المراكبَ الصَّغيرةَ من لحاءِ الشَّجرِ. إنَّما ربَّما لديها واحدةٌ أخرى.» فتحَ نصلَيهَا، الكبيرَ والصَّغيرَ، كانَا مثلَّمَينِ والمخرزُ مكسورٌ. وهناكَ مقصٌّ صغيرٌ جدًّا مُرفقٌ بالمديَةِ، وبدَا أنَّهَا لم تُستخدمْهُ كثيرًا. خرجَ توفْت إلى كوخِ الحطبِ وشحذَ نصلَي المُديةِ. ثمَّ أعادَها إلى عتبةِ النَّافذةِ.

أصبحَ الجوُّ فجأةً ألطفَ، والرِّيحُ تغيَّرَتْ إلى جنوبيَّةٍ غربيَّةٍ. تلكَ هيَ الرِّيحُ الَّتي تحبِّذُهَا العائلةُ. أعرفُ أنَّهم يفضِّلونَ الرِّيحَ الَّتي تهبُّ منَ الجنوبِ الغربيِّ، فكَّرَ توفْت.

تجمَّعَ صفٌّ منَ السُّحبِ فوقَ البحرِ، والسَّماءُ بأكملِهَا حبلت بهَا، وكانَ منَ السَّهلِ اكتشافُ أنَّها مُدجَّجةٌ بالثَّلجِ. في غضونِ بضعَةِ أيَّامٍ سيحجبُ الثَّلجُ الوديانَ كلَّها، ما فتِئت تلكَ الوديانُ تنتظرُه منذُ مدَّةٍ طويلةٍ، وهَا هوَ الآن في طريقِه إلى التَّساقطِ.

وقفَ سنفكين خارجَ خيمَتِهِ مدركًا أنَّ الوقتَ قدْ حانَ لتفكيكِ المخيَّمِ، كانَ جاهزًا للانطلاقِ. الوادِي لن يلبثَ أنْ يُعزلَ عنِ العالمِ.

ببطءٍ وهدوءٍ نزعَ الأوتادَ ولفَّ خيمَتهُ. أخمدَ النَّارَ. لم يكنِ اليومَ في عجلةٍ من أمرِهِ.

غدَا كلّ شيءٍ خاويًا ونظيفا. لم يتبقَ سوَى مستطيلٍ منَ العشبِ الباهتِ يُظهرُ أينَ أقامَ. وسيغطي الثّلجُ آثارَهُ أيضًا في اليومِ التّالِي.

كتبَ رسالةً إلى مومين ترول ووضعَهَا في صندوقِ البريد. كانَتْ حقيبةُ ظهرِه جاهزةً وتنتظرُ على الجسرِ.

أولا قصد سنفكين الشاطئ سعيا وراء نوتات موسيقاه الخمسة. تجاوز أكوام الخشب المجروف والأعشاب البحرية ووقف على الرمل ينتظر. جاءته النوتات فورًا وكانت أجمل، بل أيضا أبسط مما أمل أن تكون.

عاد إلى الجسر بينما أخذت الأغنية عن الثلج تدنو أقرب فأقرب منه، ألقى حقيبة الظهر على كتفه، ومضى مباشرة إلى الغابة.

❃ ❃ ❃

في ذلِكَ المساءِ شعَّ ضوءٌ خفيفٌ لكنْ منتظمٌ في الكرةِ البلوريَّةِ. لقدْ علَّقَتِ العائلةُ مصباحَ العواصفِ على قمَّةِ السّاريةِ وهيَ في طريقِهَا إلى البيتِ من أجلِ بياتِ الشّتاءِ.

واصلَتِ الرِّيحُ الجنوبيَّةُ الغربيَّةُ هبوبَها، وارتفعَتْ كتلُ السُّحبِ نحوَ السَّماءِ. تضمَّخ الهواءُ برائحةِ الثَّلجِ؛ رائحةٌ عميقةٌ ونظيفةٌ.

❃ ❃ ❃

لمْ يتفاجَأ توفْت عندمَا رأَى أنَّ الخيمةَ قدِ اختفَتْ. لعلَّ سنفكين خمَّنَ أنَّ توفْت هوَ الوحيدُ الّذي ينبغِي أنْ يقابلَ العائلَةَ عندمَا ترجعُ إلى الدِّيارِ. للحظةٍ، تساءَلَ توفْت مَا إذا كانَ سنفكين يستوعبُ أكثرَ بكثيرٍ ممَّا يخطرُ على بالِ المرءِ - بيدَ أنَّهُ تساءَلَ للحظةٍ فقط. ثمَّ عادَ إلَى التّفكيرِ في نفسِه ثانيةً. حلمُهُ

بلقاءِ العائلةِ من جديدٍ أصبحَ هائلَ الجسامَةِ بحيثُ اعياهُ كلمَا فكرَ في ماما مومين أصابَهُ الصُّداعُ. غدَتْ في خيالِهِ مثاليَّةً جدًّا ولطيفةً جدًّا ومواسيةً إلى درجةِ أنْ أصبحَ ذلكَ لا يطاقُ؛ صارَتْ منطادًا ضخمًا مستديرًا وناعمًا بلا وجهٍ. ووادِي المومين كلُّه صار غيرَ واقعيٍّ بطريقةٍ مَا، أصبحَ البيتُ والحديقةُ والنَّهرُ لا شيءَ سوى مسرحيَّةٍ ظلالٍ على شاشةِ تصوُّراتِهِ، وما عادَ توفت يميِّزُ ما الواقعي وما هوَ من نتاجِ خيالِه. لقدِ اضطرَّ إلى الانتظارِ مدَّةً طويلةً، وهَا قدِ استبدَّ بِهِ الغضبُ الآنَ.

جلسَ علَى درجِ المطبخِ معانقًا ركبَتيه وأبقَى عينَيه مغمضتَين بقوَّةٍ، صورٌ ضخمةٌ غريبةٌ احتشدَتْ في رأسِه وفجأةً أمسكَ الرُّعبُ بتلابيبِهِ! قفزَ منْ مكانِهِ وبدأَ يجري، تجاوزَ حديقةَ المطبخِ، وكومَةَ القمامةِ، مضَى مباشرةً إلى الغابةِ الخلفيَّةِ الَّتي أظلمَتْ أمامَه علَى حينِ غرَّةٍ، وجدَ نفسَهُ في الأرضِ البورِ، الغابةُ المهجورةُ القبيحةُ الَّتِي أتَتِ الميمبلُ علَى ذكرِها. في أعماقِ الغابةِ كانَ هناكَ

غسقٌ أبديٌّ. والأشجارُ انتصبَتْ باضطرابٍ متقاربةً كثيرًا من بعضِها، ولا مساحةَ كافيةً لأغصانِها، وكلُّها نحيلةٌ جدًّا. بدَتِ الأرضُ مثلَ جلدٍ رطبٍ. الأشياءُ الوحيدةُ الَّتي لمعَتْ كانَتْ رؤوسَ الفِطرِ بلونِها المتوهِّجِ، والَّتي نمَتْ خارجَ الظُّلمةِ كأنَّها أيدٍ صغيرةٌ، وعلَى جذوعِ الأشجارِ كتلُ عفنٍ عظيمةٌ تبدُو مثلَ القشدةِ والمخملِ الأبيضِ. كانَ عالمًا مختلفًا. وليسَتْ لدَى توفتِ أيُّ صورٍ أو كلماتٍ تصفُهُ، لا شيءَ في ذهنِهِ يتوافقُ مع ما يراهُ. لا أحدَ حاولَ أنْ يمهِّدَ ممرًا هناكَ، ولا أحدَ أبدًا استراحَ تحتَ الأشجارِ. اكتفَوا بالمشيِ في الأنحاءِ مع أفكارِهم الشريرةِ. كانَتْ هذهِ غابةَ الغضبِ. ما لبثَ أنِ زالَ عنِ توفتِ غضبُه وأصبحَ في غايةِ الهدوءِ والتنبُّهِ. بارتياحٍ هائلٍ شعرَ توفتُ القلقُ أنَّ جميعَ تصوُّراتِهِ تختفِي. بهتَ وصفُه للوادِي والعائلةِ السَّعيدةِ واختفَى. انزلقَتْ ماما مومين من خيالِه وابتعدَتْ، تحوَّلَتْ إلى صورةٍ لا شخصيَّةٍ، بلْ هوَ حتَّى لمْ يتذكَّرْ كيفَ يبدُو شكلُها.

تغلغلَ توفْتٍ في الغابةِ، ينحنِي تحتَ الأغصانِ، يزحفُ ويحبُو، ولا يفكِّرُ في أيِّ شيءٍ أبدًا حتَّى أصبحَ خاويًا كخواءِ الكرةِ البلوريَّةِ. هنا مشَتْ ماما مومين كلَّمَا كانَتْ متعبةً وغاضبةً وخائبةَ الأملِ، وأرادَتْ أنْ تبقَى وحدَها، تتجوَّلُ بلا هدفٍ في الغابةِ اللانهائيَّةِ تائهةً في كآبتِها... رأَى توفت بعينِ خيالِه ماما

مومين جديدة تمامًا وبدَتْ طبيعيَّة لهُ. فجأة تساءلَ ما الذي يجعلها غيرَ سعيدةٍ، وهل ثمَّة ما يمكنُ أنْ يفعلَه المرءُ حيالَ ذلِكَ.

بدأَ ازدحامُ الغابةِ يخفُّ، وظهرَتْ أمامَهُ جبالٌ رماديَّةٌ، تتخلَّلها تجاويفُ مفعمةٌ بالوحلِ إلى قممِها تقريبًا، وهناكَ ارتفعَتْ هائلةُ الضَّخامةِ وجرداءَ تمامًا. ولا شيءَ في الأعلى، الرِّيحُ فقط. والسَّماءُ رحبةٌ وشاسعةُ الأرجاءِ، تعجُّ بسحبٍ ثلجيَّةٍ عظيمةٍ ومهرولةٍ. كانَ كلُّ شيءٍ هائلًا. نظرَ توفْت إلى الوراءِ ولمْ يبدُ الوادِي سوى ظلٍّ غيرِ واضحِ المعالمِ في الأسفلِ. ثمَّ التفَتَ ينظرُ إلى البحرِ.

انبسطَ البحرُ أمامَه رماديًّا وأمواجُه المنتظمةُ تسدُّ الأفقَ. أدارَ توفْت وجهَهُ نحوَ الرِّيحِ، وجلسَ لينتظرَ.

أخيرًا يمكنُه الآنَ أنْ ينتظرَ.

الرِّيحُ مواتيةٌ للعائلةِ، وهَا هيَ تتجهُ مباشرةً إلى الشَّاطِئِ. إنَّها قادمةٌ من جزيرةٍ ما لم يسبقْ لتوفْت قطُّ أنْ طرقَها، ولا يستطيعُ تخيُّلَها. لعلَّهم شعرُوا برغبةٍ في البقاءِ هناكَ، فكَّر. وربَّما يؤلِّفون حكايةً عن تلكَ الجزيرةِ ويروونَها لأنفسِهم قبلَ أنْ ينامُوا.

جلسَ توفْت علَى قمَّةِ الجبلِ عدَّةَ ساعاتٍ، وعيناه علَى البحرِ.

قبلَ أنْ تغربَ الشَّمسُ ألقَتْ شعاعًا منَ الضَّوءِ خلالَ السُّحبِ. شعاعٌ باردٌ وشتويُّ الصُّفرةِ، جاعلًا العالمَ بأسرِه يبدُو مهجورًا للغايةِ.

ثمَّ لمحَ توفْت مصباحَ العواصفِ الَّذي علَّقَهُ بابا مومين على رأسِ السَّاريةِ. شعَّ المصباحُ بضوءٍ رقيقٍ دافئٍ وتوهَّجَ بثباتٍ. كانَ المركبُ على مسافةٍ بعيدةٍ جدًّا. لكن لدَى توفْت متَّسعًا وافرًا من الوقتِ لينزلَ إلى الغابةِ ومنها علَى طولِ الشَّاطِئِ ثمَّ رصيفِ الميناء، حيثُ يكونُ هناكَ في الوقتِ المناسبِ ليلتقطَ الحبلَ ويربطَ المركبَ.